

حكايات المرأة الوحيدة

قصص قصيرة

نعمات البحيرى

المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

ابداعات الفروع

سكرتير التحرير الفني

هشام نوار

حكايات المرأة الوحيدة

قصص قصيرة

نعمات البحيرى

الطبعة الأولى

٢٠٠٥

المجلس الأعلي للثقافة
١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا،
القاهرة

الرقم البريدى : ١١٢١١

تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦

فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

بريد إلكترونى :

egypt council @ yahoo. com

رقم الإيداع:١٠٥١١/٢٠٠٥

الغلاف والإخراج للفنان

عدلى رزق اللــه

Amiria



إبداعات التفرغ

[٢٨]

حكايات المرأة الوحيدة

قصص قصيرة

نعمات البحيرى

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب: حكايات المرأة الوحيدة.

اسم المؤلفة: نعمات البحيرى.

الطبعــــــة: الأولى – القاهرة ٢٠٠٥م.

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St Opera House, El Gwzira, Cairo

Tel: 7352396 **Fax**: 7358084

إهداء

إلى أصدقاء حقيقيين وبشر جميل

نعمات البحيرى

المحتوى

إيقاعات كاذبة

كانت الليلة غير كل الليالى التى مرت، فقضيت وقتًا فى التردد بين البقاء فى البيت مع القراءة والقصص والقطط، والخروج إلى البشر فى الشوارع والحارات والفاترينات التى تحتفى بأضوائها وطرق سرية وسحرية فى جذب المارة. حسمت التردد لصالح البقاء إلى جوار التليفون ربما جاءتنى بعض التهانى.

وقع الجملة السحرية فى عيد ميلاد امرأة مثلى له إيقاع جميل وكاذب، غير أننى ما زلت – ولا فخر – أحب هذا النوع من الكذب.

طال الانتظار وتربص عقلى وعيناى وأذنىَّ بالتليفون، ولا من طائل. بعد وقت تذكرت أن لا أحد يعرف جيدًا تاريخ ميلادى فقررت – هربًا من جيوش وجحافل الأوهام – الدخول سريعًا فى النوم إلا أننى أيضًا لم أستطع.

طاردنى هاجس غريب وجميل على نحو ما أن يكون اليوم علامة فارقة لأيام وسنين عمرى القادمة. فى أحيان كثيرة تراودنى فكرة الانتعاش بأمل بعيد، رغم عدم توافر دوافعه. ربما كان جزءًا من تكوينى النفسى – يعنى خلقة ربنا – أن أقاوم عناصر الانسحاب والانزواء والموات.

وانتتنى الفكرة وأنا أنفض سجادتى بالمنفضة ليخرج منها الغبار، فضبطت نفسى متلبسة بالإفراط فى ضرب السجادة، وتراءت لى لحظة فريدة من نوعها أن ما يجب أن أنفضه من الغبار حقا هو حياتى.

كنت أنظر إلى بعض كراكيب البيت.. هذا الفائض الهائل من الكتب والأوراق وبعض الأثاث، فبرقت بوميض واضح فكرة التخلص من كراكيب

البشر وكراكيب الأفكار. ومن أجندة التليفونات التى لم تتغير منذ سنوات وشاب أوراقها القدم والاصفرار. أسقطت كل الذين صاروا عبئًا على حياتى، وكل الذين لم أعد أستشعر تجاههم بعاطفة قوية، وكل الذين لم أرهم ولم يتصلوا بى منذ زمن حتى وأنا فى أمس الحاجة إليهم. أسقطتهم كما تسقط الشجرة أوراقها اليابسة والميتة التى لا روح فيها..

تتزاحم أدمغتنا بكم هائل من الأفكار التى شبهها "كافكا" بالدودة الهائلة، ووجدتها فرصة سانحة للتخلص من الدود الذى يرافق أفكارى.. مجرد دود يأكل فى حياتى ولا يضيف إليها..

بعد إزاحة الكثير من دود أجندة التليفونات جلست جلستى المفضلة فى ركن الصالة أمام اللوحة الجميلة التى اشتريتها منذ أكثر من خمسة عشر عامًا بخمسة جنيهات.. يومها أمسك أخى باللوحة، وراح يقلبها فى كل الاتجاهات محاولا أن يفهم شيئًا فلم يستطع، وهو لا يعلم كم المعاناة التى كابدتها فى نقل اللوحة من سور الأزبكية حيث كان فرحى الخاص بالكتب واللوحات حتى وصلنا بيتنا فى العباسية. يومها قال ساخرًا:

"مش كيلو لحمة كان أفضل. على الأقل كنا ح نفهمه".

كان كيلو اللحم فى تلك الأيام بخمسة جنيهات حقًا، إلا أننى كنت قد عرفت مبكرًا "نيتشة" الذى قال.. "تحتاج الفن كى لا تميتنا الحقيقة"، وعرفت بيكاسو الذى قال.. "الفن كذبة نفهم بواسطتها الحقيقة". ولأننى تأخرت فى معرفة طرق البحث عن الحقيقة ظلت اللوحة تنتقل ما بين جدار غرفة ضيقة فى شقة أبى إلى جدار لغرفة واسعة فى بيت زوجى وجدران أخرى فى بيوت أخى وأختى وعمى وعمتى وآخرين حتى استقرت الحال أخيرًا فى

بيتى الصغير الكائن بعيدًا، على الجانب الآخر من الدنيا.

بدا لى أننى كنت ألف معها مثل "كعب دائر" على بيوت بنيت كلها خصيصًا للغضب. كان هذا عبر أكثر من خمسة عشر عامًا هى عمر اللوحة، وعمر كثير من الأحلام والمرارات والبهجات التى مرت بى ومررت بها.

كانت اللوحة لمشهد طبيعى لطريق ريفى فى ليل شتائى ساكن، وكان الطريق موحلا وليس هناك من ضوء، عدا القمر الذى ما زال يفعل فعله مع الغاضبين والوحيدين والمحبطين والغرباء.

وكنت فى أغلب أوقات الغضب والحزن أنظر إلى اللوحة فأجدنى وبشكلٍ مدهش أتجاوز على نحو ما إحساسى بالفقد والمرارة..

كان الطريق الريفى محفوفًا بأشجاره الطويلة العارية، ربما يسير فى اتجاه حدائق وحقول ونهر، وكوخ صغير على جانب الطريق، مغلق على الظلمة والصمت، ولمعان ما تبقى من ضوء يسقط على وحل الطريق، يوحى بتعثر السير للبشر والسيارات. والطريق ممتد إلى ما لا نهاية.. هو فيما يبدو منحدر على تل فى ريف غريب.

اللوحة مؤطرة ببرواز ذهبى، وكلما جلست إليها أمعن النظر فتدركنى معان خاصة للغاية، ربما كانت تمسنى من قريب أو من بعيد. أتذكر أن اللوحة رافقتنى مثل قدر فى كل البيوت التى تنقلت بينها طيلة عمرى.

وفى وقت أدركت أن حياتى تشبه على نحو ما هذه اللوحة. طريق موحل وأشجار قليلة متباعدة دون أوراق، وكوخ مغلق من كل جانب، وبقايا نهر ونتف ضوء ولا من بشر يسيرون ليحركوا الساكن والراكد والمصمت

فى البيت والشارع والحياة.

ظل يراوغنى – دون جدوى – سؤال عن سر ولعى بهذه اللوحة. أهـو ذلك الوهم الصغير رفيق أوهام كبيرة بأن ثمة ارتباطًا وثيقًا حدث ويحـدث ويجدد نفسه دائمًا بينى وبين اللوحة عبر سنوات عمرى الماضية.

حدثت نفسى أنها الحياة التى اخترتها، وعلىَّ وحدى أن أتحمـل نتـائج اختيارى، لكننى وبعد وقت قررت بمنتهى التفاؤل وادعاء الأمل فى سـنوات عمرى القادمة، التخلص من هذه اللوحة التى وصـمت حيـاتى وحركـاتى وسكناتى بألوان رمادية حالكة.

وبالفعل فى اليوم الأول فى السنة الأولى بعد الأربعين قمت فى حالة من التفاؤل فألقيت على قطى الوحيد "ماركيز" تحية الصباح، ووضعت له إفطاره وأعددت فنجانًا من القهوة وجلست فى الشرفة ذات الصبارات الكثيرة التـى توحى بقدرة هائلة على الصمود والجلد.

بعد آخر رشفة من فنجان القهوة قمت إلى العمل على تصفية كراكيـب شقتى وكراكيب حياتى. قمت أولاً بالتخلص من كتب لم أقرأها ولست مقررة قراءتها لأسباب تخصنى، وكتب قرأتها ولن أفعل مرة ثانية، وكتب جـاءتنى كهدايا لا تعبر إلا عن أفكار أصحابها، كما استبعدت فائض أثـاث لا يزيـد البيت إلا ضيقًا.

وفى الليل قمت وأنزلت اللوحة من فوق الجدار ورفعت إليه لوحات أخرى، وسجاد مصنوع باليد يحمل أشجارًا ونخيلاً ورجالاً ونساء ريفيـات، واستدعيت عبر التليفون أهل وأصدقاء وجيران وجارات وعرضت عليهم اللوحة إلا أن الجميع رفضوا متعللين بأسباب شتى.

كانت الصورة تحدثنى كلما نظرت إليها، وكأنها تدفعنى للانحياز إلـــى قيمة ما ومعنى وهدف، ثم تحدثنى أن أتمسك بهذا الشيء الذى يستطيع إلـــى الأبد أن يكون سندًا ودرعًا أكثر مما يستطيع أن يكون شيئًا آخر، وأن أطرح وإلى الأبد حيرتى وأوهامى لأكسب رأسى ورءوس الآخرين.

استنكرت فكرة التخلص من اللوحة بإعطائها للزبال إلا أننى فعلت، على الرغم من أن صوتًا بداخلى كان يصرخ بألا أفعل، لكننـــى تعللـــت بأننـــا لا نعرف تمامًا درجات التذوق الفنى لدى الزبالين، وقمت بوضعها إلى جـــوار كيس القمامة الذى أخرجه كل يومين للزبال، غير أن الرجل الـــذى دافعـــت كثيرًا عن تذوقه الفنى قام بأخذ الأكياس ومضى إلى حال سبيله تاركًا اللوحة مسنودة بباب شقتى.

بعد وقت والفكرة ما زالت تمارس سطوتها على رأسى رأيت أنه لا مفر من التخلص من اللوحة فذهبت إلى بائع الخضر والفاكهة ووضـــعتها إلـــى جواره ورحت أنتقى نصف كيلو طماطم ونصف كيلو بازلاء ونصف كيلـــو بطاطس ونصف كيلو جوافة ثم ضبطت نفسى متلبسة ببذل جهد أكبـــر فـــى مفاوضة الرجل للحصول على أسعار أخرى، وكان هذا على غير عادتى.

بعدها تركت اللوحة مركونة قريبًا من أجولـــة الخـــضروات وحملـــت أشيائى ومضيت..

فى ذلك اليوم عشت حالة هادئة وجميلة بغير اللوحة، ورحـــت أراقـــب بيتى وحياتى ونظرات قطى الجميل. فضلاً عن ذلـــك الإحـــساس المهيـــب بالبهجة. سمعت موسيقى ودخنت سيجارة ورويت صباراتى، واستقبلت عددًا من المكالمات التليفونية ولم أرد على عدد آخر. قرأت فى كتاب كنت أؤجله

لأسباب لم أفهمها واستدعيت كمًّا هائلاً من الذكريات المبهجة وتصالحت مع نفسى وجلست إليها بعض الوقت.

لم يكد اليوم يمضى لآخره حتى سمعت دقات جرس الباب.

كان صبى صغير يحمل اللوحة ويمسح عرقه وفمه وعينيه بكم جلبابه.. وحين سألته كيف عرف أنها تخصنى أكد أن معلمه سيعاقبه علـــى التـــأخير ومضى دون أن أعرف.

لم أستطع أن أقنع نفسى بأن المسألة انتهت عند هذا الحد، وكانت الفكرة ما تزال تمارس سطوتها على رأسى.

فى اليوم التالى أخذت تاكسيا واللوحة معى مثل قط أرغب فى تـسريبه، وانبرى السائق يسألنى عما إذا كنت ركبت معه من قبل، أم أن هذه المـسألة لا تتعدى وجه الشبه وسبحانه الذى يخلق من الشبه أربعين. أكـــدت للرجـــل أننى حقًّا لم أره من قبل.

لم أكد أبتعد بالتاكسى مسافة وأخرى حتى حملت اللوحة معى ونزلـــت. بدت نظرات سائق التاكسى فى مرآة السيارة تؤكد أنه لا يصدقنى. تجاوزت المسألة ووقفت على الرصيف أنتظر أن تهدأ حركة السيارات المتعجلة.

تطاير ورق الجرائد الذى كنت أغطى به اللوحة، وبدت كأن لها عينـــين توخزان بنظراتهما نفسى. أخفيت وجهها مرة ثانية ثم نظرت يمينا ويـــسارًا وتركتها، وعبرت الطريق إلى الجانب الآخر لأوقف تاكسيا للعودة.

فى التاكسى التقطت أنفاسى وكأن عبئًا ثقيلاً أزاحته العناية الإلهية عـــن كاهلى.

لم أكـــد أصل إلى البيت حتى رأيت سائق التاكسى الأول يحمـــل اللوحة

ويقدمها لى مبتسمًا.

في تلك الليلة لم أنم نومًا عميقًا، فقد ظللت أحسب حسابات الصباح الذى ربما يتأخر ولو قليلاً على غير العادة..

مقعد صغيرٍ فى القلب

البدايات دائمًا رحبة وفضفاضة ورقراقة كمياه النهر، وساحبة كالرمال الناعمة وخاصة فى الحب والزواج. نظل نغزل من الحلم أثوابًا وردية فتتداخل الأفراح، وتتباعد الأتراح، وتتناءى الشرور، ونتبادل الأسرار، ونفتح الروح على الروح والقلب على القلب، فتتفتح نوافذ على القمر والشمس. والسماء تجزل عطاءها على المحبين والراضين والقانعين بأقل القليل، وتمتد الأزمنة والأمكنة فراشًا للمحبين والمحبات، ويبدو الكل للكل سترًا وغطاء. سنة الحياة والبشر والنبت الصغير الذى ينشأ ثم يترعرع فى أرض طيبة حتى ولو كانت صخرية.

ثم حدث الانفصال حين هبت العاصفة ولم تستطع الأذرع والعيون والقلوب اتقاءها، فأخذت فى وجهها كل شيء، ولم يبق أى شيء، ثم هدأت مخلفة الرماد المتطايرة ذراته فى العيون. لكننى ظللت أرسل له مع المسافرين السجائر المصرية التى يحبها وشايًا وبنًّا على الرغم من أن الحياة بدت مثل ثوب جميل انقلب على ظهره، أو – ودون أن تنزعجوا من سخريتى المؤلمة – فردة شراب مقلوبة. على الرغم أيضًا من أننا لم ننتظر حتى تفرز العلاقة بيننا أنكر الأصوات وأفظع الروائح وأقبح الألوان، ليروح كل منا يبذل جهوده المضنية فى تحميل الآخر مغبة ما حدث وما يحدث وما سوف يحدث..

بعد انفصالنا لأسباب ليست لنا يد فيها، ولا يجوز الخوض فيها الآن. قامت الدنيا ولم تقعد وتقلب الجرح مثل الألم الناتج عن انفصال الظفر من

اللحم، ثم هدأ تدريجيًا كل شيء حتى اليأس. تدخل الكثيرون، كل يدلو بدلوه عن النتائج والأسباب والمسببات، وتعالت أنفاس الحقد والحسد والتشفى والتشويش، ولما اضطربت التفسيرات والتأويلات، عزف البعض كونشرتات القيل والقال.

انطلق المارد من قمقمه، ورغم كل الخرافات والأساطير التى قيلت عن الحب والحلم داخل القمقم، انطلق ليمنحنى رحابة الحرية واستنشاق أنفاسها واستحلاب مذاق طيب لها، ورغم فرقتنا صار لكل منا حياته، إلا أننى قررت أن أبقى له ولو مقعدًا صغيرًا، وقد مشينا معًا دون اتفاق مسبق أولى خطوات التحرر من قدر النهايات المفجعة لأجمل علاقات الحب والزواج.

فى البدء كانت دهشته، ثم جاء فرز الأيام والشهور والأحلام والكوابيس التى عشناها معًا، أو فى البعد والتنائى فى كتاب أهدانى إياه، وكتب إهداء فى مقدمة الكتاب.

"إلى امرأة جميلة، كانت يومًا زوجتى"...

كان الكتاب أول دواوينه الشعرية ولم يكن عمره بشاعر لكنه صار هكذا بعد انفصالنا، ثم أقام من بيتنا متحفًا، وراح يهمس للأصدقاء..

"هنا كانت تكتب، وهنا كنا نقرأ معًا..
وهنا كانت تأكل رأسى خوفًا من الصواريخ الليلية
بعدها تتلو الشهادة وتنام،
وهنا خصلة من شعرها الأسود،
وهنا يرقد خاتمها الذهبى،
نسيته فى إحدى الغارات وفرت"...

ثم تباعدنا وتناءينا، وسار كل فى طريقه، لكنه ظل كلما رأى أحدًا يعرفنى أرسل معه كتابًا ألفه أو آخر أعجب به، أو باقة ورود يابسة، وكذلك ظللت كلما سافر إليه أحد أرسلت له سجائر مصرية من تلك التى كان يحبها.

ذات مرة أرسل لى رسالة صغيرة كتب فيها..

زوجتى.. نعم ما زالت زوجتى.. ألم يعد بيننا غير الدخان؟

كان ولا يزال الود يأخذ مداه رغم الفرقة، ورغم ادعاء العمليين والواقعيين بعبث الود وفوضى المشاعر وسذاجة الرومانسية. كنت أسخر من كل هذا بخفة دم، ربما خفف هذا على نحو ما من قدرة فعل الجفوة بينى وبين زوجى السابق الذى صرت أتعامل معه مثل جزء من تاريخى. تاريخ الألم والبهجة..

مرت الأيام وكتبت عن لسانى قصائد وروايات وقصصًا جديدة، على الرغم من أننى توخيت الحيطة والحذر، ولم أكن لأجرؤ على الخروج ولو قليلاً خارج جدران الممكن والمسموح، لكنه قدر الخبرة الإنسانية المغايرة الذى يجعلك تقفز داخل الحياة قفزات هائلة لأن الود الإنسانى فى عصر الكمبيوتر والإنترنت والعولمة قفز قفزات هائلة للوراء، فالأيام والتجارب والخبرات حتى السيئ منها، يمنحنى هواءً غير محدود للتنفس.

عفوًا فقد دق الباب.. أحد أصدقائه عابرًا بمدينتنا وحيِّنا، ترك باقة ورود يابسة ورسالة صغيرة وكتاب.

أشواق باتساع العمر

علمتنى الأيام لعبة الفقد والبدائل، وكنت قد عرفت شيئًا مــن فــن إدارة الأزمات، والصبر على الأنفاق المعتمة، فصرت إذا فقدت وظيفة بحثت عن أخرى، وإذا هدم لى بيت أقمت غيره، وإذا فقدت صديقة فكل الكائنات الرقيقة أصدقائى، طيور وحيوانات أليفة ونباتات وأزهار، وأشجار وتتكفل الطبيعــة بإبداء العزاء والسلوى حتى تنفجر الأرض ببشر رائعين، يصيرون مع الوقت أعز الأصدقاء.

صارت تلك بوصلتى التى توجهنى، حتى حين أوقفتنى ظروف الحياة فى منعطف بين خيارين، أن أرتمى بين دوامات الحزن والكآبة أو أستأنف الحياة بلا أطفال، على الرغم من أن إحساسى الغريزى بالأمومة ظل يظفر من آن لآخر بالألم، مثل جرح مفتوح، إلا أننى – عن قناعة غير يائسة – اختــرت الثانى.

وذات يوم بارد من أيام ديسمبر تلفعت بشال صوفى، فى محاولة لتفادى الرياح الباردة وذهبت لزيارة صديقة تسكن مدينة نائيــة وتهــوى الــزرع والقراءة وتربية القطط، وبين فناجين القهوة وأكواب الشاى الساخن امتد بيننا الحديث عن مشاعر الألفة التى تبثها القطط فى البيوت، وتمنحها للوحيــدين أمثالنا، فيمدون بها جسرًا مع الحياة.

فى ذلك اليوم قررت اقتناء قطة، وقد حدث ووافقتــى الــصديقة نفــسها بواحدة. وفى سرعة فائقة ألفت التعامل معها، وكانت قطة جميلة على نحــو ما، بيضاء اللون مبرقشة بالأسود والبنى، غزيرة الشعر، ذات ذيــل طويــل

مفلطح من نهايته مثل ذيل سنجاب، وسرعان ما ألفت هى الأخرى التعامل معى، فراحت تأكل من يدى وتجرى إلىّ لتجلس إلى جوارى أو تداعب خصلة شعرى.

سارت عجلة الحياة بين العمل والقراءة وزيارة الأهل والأصدقاء، وتأمل مواقف وأحداث الحياة، وقطتى إلى جوارى تشاركنى النوم ومشاهدة التليفزيون والجلوس فى الشرفة الوحيدة المطلة على مدرسة للأطفال. وشيئًا فشيئًا اعتادت قطتى أن تشاركنى جميع أنواع الطعام حتى الخضروات والحلوى وقزقزة اللب والفشار تمامًا كالأطفال.

كنت أبتسم لمرآها، وهى تأتى بعناد الأطفال نفسه ونزوعهم نحو الشقاوة واللعب والقفز والمرح، حتى الرغبة والتمرد على قوانين البيت، راغبة فى فرض شىء من قوانينها، وكنت أحيانًا أمرر لها ما ترغب، فراحت أمومتى تتفجر إزاء الكائن الجميل الذى يتدفق بالحيوية والبهجة، فلم تكن قطتى شرسة أو شريرة أو سريعة النفور والغضب كشأن بعض القطط. كانت على العكس تمامًا، هادئة وحنونة ودافئة، حتى إننى ذات ليلة رأيتها تربت على خدى مثل بشر حنون.

كنت حين أطالبها بالابتعاد عن النار أو أى من مظاهر الخطر كانت تستجيب، وتجلس فوق شيش الشرفة لتتابع الأطفال فى المدرسة المقابلة تراهم وهم يقفون فى طوابير الصباح، مبتهجين بتحية العلم وغناء الأناشيد، ثم ينصرفون فى طوابير منتظمة إلى فصولهم. كانت تلتفت لى وكأنها تحثنى على تعاطى البهجة نفسها، وتأمل الملامح المتجددة فى وجوه الأطفال يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر، حتى صار يخامرنى إحساس عميق بأن الحياة

لا تعدم عطاءها السخى، وأن على كل إنسان ألا يتوقف أمام شح الطبيعة، والصيغ الثابتة للبهجة والسعادة، وقسوة ظروف الحياة التى لا تكون مواتية فى أغلب الأحيان.

اختصارًا صارت الحياة ممكنة على نحو ما ومحتملة وأليفة ومستأنسة على نحو كبير، تمامًا مثل قطتى. الجميل أننى أيضًا حققت قفزات هائلة فى مجال عملى، بدأت كلها فى القفز للمجهول، فصرت أشعر بأننى لا أعانى من نقص ما.

وذات يوم زارتنى جارة لى وراحت تتشكى من جفوة أبنائها، منذ تزوجوا وصارت لهم أسر وبيوت بعيدة. كنت أشعر بصوتها الممرور وتحكى عن خساراتها الفادحة فيما أنفقته من عمرها فى البذل والعطاء، وها هى الآن تجنى ثمارًا معطوبة لا تتلاءم مع شيخوختها التعسة.

لم أضع نفسى فى لحظة مقارنة بينى وبين جارتى، لكننى توجست أن تتسرب إلىَّ مراراتها. بعد وقت بدت مظاهر رغبة قطتى فى الحب والمؤانسة والزواج والإنجاب، وفشلت فشلاً ذريعًا فى الحصول على ذكر يناسبها، ذكرنى بفشل سابق. بعدها فتحت لها الباب ورجوتها أن تخرج لتأتى بمن ترغب فى الزواج منه وسوف أزوجها إياه فى التو واللحظة.

غابت قطتى يومًا ويومين وأسبوعًا وأسبوعين وشهرًا كاملاً. وذات يوم وأنا أعيش حالة فقد، تحدوها المرارة من كل جانب. نزلت إلى الشارع فى بكرة الصباح لأتريض وأستنشق قدرًا هائلاً من الهواء النظيف قبل أن تصل إليه الأنوف قبلى فإذا بى أسمع مواء يشبه مواء قطتى فى طابق علوى، فإذا هى قطتى محبوسة بإحدى الشرفات، بدا أنها لشقة مغلقة. أسرعت وصعدت

إلى الشقة فإذا لا أحد وقطتي محبوسة تمامًا، ولا أدرى منذ متى وهى كذلك. كانت الشقة المجاورة مليئة بالعمال وحركات دائبة للعمل على تشطيبها فرجوتهم أن يأتوا بقطتي من الشرفة المجاورة وبالفعل قفز أحدهم، وحمل القطة التى بدت ببطن ممتلئة، ثم عبر بها الجدار. ارتمت فى حضنى ثم جرت أمامي وجرتنى خلفها قبل أن أشكر العامل، وإذا بها تجرى إلى الشارع، وتنظر إلىَّ وكأنها تحثنى أن ألاحقها وأسرع بسرعتها نفسها.

كانت عيناها تقولان رسالة لم أفهمها إلا حين نظرت لبطنها المدلاة تحتها. حين وصلت البيت راحت تسرع على السلالم وتحثنى بعينيها أن أسرع حتى صعدت إلى شقتى وفتحتها فإذا بها تسرع نحو دولابى، وتخربش الباب لأفتحه لها فتدخل الرف الأرضى وتستلقى، كانت تنظر بعينى امرأة ترتب للحظة ولادة، بعدها رحت فى فرح أهيئ مكانها بالدفء والأمان لتبدأ فى المخاض، وأرتب طعامًا خاصًا يليق بالقطة "مشروع الأم". انتابتنى بحق مشاعر من تنتظر أحفادًا بفائق الشوق واللهفة..

كنت أشعر أن أفراحى الصغيرة تكبر يومًا بعد يوم. ظللت إلى جوار قطتى أتابع مشاعر التوتر والتعب، وأحوطها برعايتى وحنانى حتى أدركتها لحظة الولادة، تلك اللحظة التى ترجرج لها كيانى وأنا أراها تعصر نفسها ألمًا وتنظر إلىَّ بنظرات ملؤها التعب، والشوق واللهفة والوجل والأمل، ثم وهى تصرخ صرخة طويلة راحت تضع وليدها الأول.

لم أشعر للحظة بأن التى تلد مجرد حيوان أليف يشاركنى البيت والوحدة والحياة، ورحت مثل كل الأمهات أعد لابنتى التى "فى حالة وضع" طعامًا شهيًا يعوضها عن التعب والألم، وعما فقدت من حيوية أثناء الولادة. وضعت

ابنتي ثلاث قطط تشبهها. ثم صار البيت وكأن أطفالاً كثيرين يملأونه.

ومثلما أقمت احتفاءً بالولادة، أقمت فرحة بـ"السبوع"، وعشت مشاعر شديدة الفرح والبهجة. ومع الوقت رحت أساعد ابنتى فى الرعاية ببناتها. ترضعهن وتلعقهن وتمسح شعرهن. كنت أرى نظرات الطفولة فى عينىَّ قطتى تتبدل بنظرات الأمومة التعسة، وقد ظلت فى مكمنها تمارس أمومتها، ولم أعد أراها إلا لتأكل ثم تتسرب عائدة لتطعم صغيراتها فى جحر دافئ فى أرضية الدولاب.

كنت أتوجس أن يتملكنى شعور بالجفوة والإهمال بعد أن انشغلت قطتى بصغارها، وداهمنى إحساس بالاغتراب، وأننى مجرد صاحبة للبيت، أو خادم أمين يسعى لتلبية احتياجات القطة وصغارها. ثم اجتاحتنى رغبة عارمة فى زيارة جارتى التى أهملها أبناؤها بالبعد والجفاء، وكأننى أبحث عن سلوى كافية، فزرتها، ورحت أسأل عن أبنائها، وهل وافتها منهم زيارة أو خطابات أو حتى مكالمات تليفونية. لكن جارتى التى كانت تفوح رائحة النوم من فمها، راحت تؤكد لى أنها نسيت أو تناست أن لها أبناء، أو هكذا يجب أن تمر الحياة.

كانت قطتى فى حركتها السريعة بين جحرها ومكان الطعام تتفادى نظراتى إليها، كما أتفادى الشعور بأنها صارت تشبه أبناء جارتى على نحو ما. كنت أراقبها حين تترك صغارها وتذهب إلى المطبخ لتأكل ثم ترتاح قليلاً فى الشرفة وكأنها تسألنى عن صغار المدرسة الذين أخذوا الإجازة المدرسية.

مرت الأيام ثقيلة وباردة وجليدية فى بعض الأحيان حتى إننى واجهت قطتى بذلك الشعور الصارم بأننى صرت مثل خادمة لتلبية رغباتها ورغبات

ولائدها. ثم رحت أؤنب نفسى على إفراطها فى العته والجنون إلى حد عتاب القطة.

وذات ليلة رأيت قطتى تنسل من بين صغيراتها وتأتى لتنام على ذراعى كعادتها قبل الولادة. بدت القطة كأنها تربت على مشاعرى فعاودت الحـديث إليها رغم غيرتى غير المعلنة أنها صارت أمًّا ولا بد أن تظل إلـى جـوار صغيراتها اللائى هن فى حاجة إلى حنانها ودفئها، ثم سخرت من نفسى "هل ستعى القطة حديثى هذا؟".

فى الصباح صحوت على مشهد غريب ارتج له كيانى، لأرى قطتى تنام على ذراعى، وفى المسافة ما بينى وبينها رصت صغارها يتوسدون ذراعى. تبادلنا أنا وهى النظرات، وكأن شيئًا ما يقال بيننا.

وكر الزوجات

فى أحيان كثيرة أشعر بأننى أغزو البرية فأنتزع من الطبيعـــة مـــساحة هائلة من الاخضرار والبهجة. ذات مساء دق جرس التليفون وكـــان علـــى الجانب الآخر جارة لى لم أرها من قبل. أو ربما رأيتها على سلالم العمـــارة ولم أعرفها. أخبرتنى أنها مصرة على أن يتم التعارف بيننا، فهى معجبة بى أشد الإعجاب وعلىَّ تحديد موعد سريع للقاء إما فى شقتها أو فى شـــقتى أو فى أى مكان آخر. أخبرتها أننى صرت أكره الجدران التى تسجننى مع رفقة سيئة اسمها الوحدة..

أدهشتنى "نادرين" بمبادرتها الرقيقة بأن يكون اللقاء فى ذلك النادى الذى تشترك فيه هى وعائلتها. وقد أفشت لى سرًّا من أسرارها الـــصغيرة وهـــى تضحك أنها تزوجت خصيصًا من رجل ليست به أية مميزات عدا أنه عضو بناد شهير يعد واحدًا من أهم النوادى الراقية ليمنحها عضويته بالتبعية. هـــو الآن يسحب منها كارنيه العضوية حين يعاقبها..

كنت قد آليت على نفسى وأنا امرأة وحيدة، بلا زوج وبلا عضوية ناد أن أعتاد على بيتى وجدرانى وبعض أشكال التسلية والمتعة داخل هذه الجدران من كتب وروايات بوليسية ورومانسية ونباتات ظل وشمس وقطـــط أدللهـــا وتدللنى و"دش" وفيديو وإنترنت، وغيرها من الوسائل التـــى تـــدخل علـــى الإنسان بعضًا من البهجات العصرية وتمتص بعصارة سهلة الهضم فـــائض الوقت والطاقة والكآبة. هذا بعد العودة من العمل.

اعتدت أيضًا الابتعاد كثيرًا عن الجيران الذين يخافون على زوجاتهم من

المرأة الوحيدة والجارات اللائى يخشين منها أيضًا على أزواجهن.. لـــم أر من الجميع سوى النفى والإهمال والتهميش لمجرد أننى امرأة بلا رجل وبلا أطفال وبلا أوهام بشأن الواقع.

الجميع يصدرون لى إحساسًا سخيفًا وممجوجًا بأننى كائن فـــائض عـــن الحاجة. وفى المقابل صرت أعمل على نفيهم فى الطالعة والنازلـــة وكـــأنهم أشباح.. وخاصة بعد أن رأيتهم يستنكرون على المرأة الوحيدة أن تعـــيش أو تقتنى شيئًا أو تعمل عملا يمنحها قيمة لا يمنحها لها رجل.. وأن على المرأة الوحيدة أن تظل حبيسة جدرانها واضعة اليد على الخد تفكر فى حظها الذى أدرجها على قائمة النساء الوحيدات..

حتى زملائى فى العمل أراهم يستكثرون على مرتبى. ذات مرة ســـألت موظف الخزينة عن استمارة علاج فسألنى عن مرتبى وماذا أفعل بـــه وأنـــا وحدى وبلا زوج أو أطفال أنفق على طعامهم وملبسهم وتعليمهم ودروســـهم الخصوصية. آخر مرة ذهبت لأقبض مرتبى وجدته ناقصًا مائة جنيه. أخذنى الموظف على جانب وقال لى بعيون وقحة..

"سلف .. لا مؤاخذة يا مدام.."

تذكرت مقولة أمى "السلف تلف..."

حتى زميلاتى فى المكتب يتلفن حياتى بأشكال أخرى، يـــستكثرن علـــى أشيائى وبهجاتى الصغيرة التى أجدها حتى فى قراءة كتاب، بعد الانتهاء من العمل. وهن يملأن القسم بعناصر الثرثرة والنميمة ومسك الـــسيرة. كلهـــن زوجات يرقن تفاصيل الملل والرتابة والخرس الزوجى وعناصـــر الجفـــاف العاطفى على المكاتب، لتتحول غرفتنا فى الهيئة إلى وكر للزوجات أو عش

للدبابير يفقدنى "زنُّها" القدرة على أى تركيز فى العمل أو فى قراءة جريدة أو كتاب. ويوم اشتريت سيارتى الصغيرة المستعملة والتى أسميتها مرحًا "قلة بنت خوخة اللى جت بعد دوخة" بدوت للجميع وكأننى صعدت للسماء بسلم وأمسكت النجوم بيدى. قالت زميلتى وهى تمصمص شفتيها..

"كويس.. ربنا بيقطع هنا ويوصل هنا"

زميلتى التى تدعى الأخذ بأسباب القطع والوصل هى نفسها زوجة لرجل يرفض العمل ويعيش على نفقتها الخاصة فداهمتها بسؤالى..

"مشفقة علىَّ..؟"

لم تنطق، بل راحت تتلقى مكالمة تليفونية عاجلة.

بعدها أكدت لزميلتى الحشرية التى تحرص طوال الوقت على أن تدس أنفها فيما لا يعنيها، وتزيد دخلها بالتعامل فى سمسرة الشقق والشاليهات والمقابر عبر تليفونات الهيئة. فى الأيام الأخيرة صارت تتاجر حتى فى الخضار بعد تنظيفه ثم فى ملاءات وبياضات الأسرَّة وإيشاربات الشيفون وعباءات المحجبات.

قلت لها: إننى أشفق عليكن جميعًا، على الرغم من أننى امرأة وحيدة وهن زوجات لكننى أراهن يأتين كل صباح والكآبة على وجوههن بادية للعيان، وكأنهن لم يكن نائمات فى أحضان أزواج، بل نائمات فى بيوت للزواحف.. لم يكن ذلك لكراهيتى للرجال ولكن دفاعًا عن وحدتى التى أحبها حتى لو كانت عاهتى.

الوكر نفسه الذى أراه منصوبًا فى مدخل العمارة لبعض الجارات أو فى شقة إحداهن وهن يتبادلن السجائر التى يسرقنها من علب سجائر الأزواج.

كما حكت لى "نادرين" فيما بعد. سقف حلم كل واحدة أن تبدد الوقت والعمر فى بهجة مسروقة. استعاضة عن بهجات متاحة باردة.

أغالب دائمًا مشاعر الوحدة وأتعامل مع الحياة فى صيغتها الأجمل. و"أعقلن" – أى أفكر بعقلى وليس بعقول الآخرين – صيغة الوحدة التى فرضت فرضًا على حياتى وأعيشها فى صيغتها الأرقى حتى لا يتفاقم طعم المرارة فى حلقى، فأنحى جانبًا تلك المشاعر السلبية وأدعم فى نفسى صورة امرأة مستقلة وقوية وغير قابلة للكسر، تقرأ وتكتب أحيانًا وتحب البشر والحياة، وعازفة عن الدخول فى علاقات مهينة، بينما ترى الزوجات فى أوكارهن يمتصصن مرارة الخرس الزوجى والجفاف العاطفى فيدخلن مرغمات فى علاقات الثرثرة والنميمة وندب الحظ وسوء الطالع وفش الغل فى ضرب الأولاد والخادمات ويرقن الوقت والعمر أمام مسلسلات التليفزيون والفضائيات.

فى أول زيارة لها أخذتنى "نادرين" بعناصر الحفاوة والترحيب وكأنها تعرفنى منذ زمن. وتوالت خادمتها بتقديم الساخن والبارد. وتوالت "نادرين" فى إبداء تعاطفها وإعجابها بشخصى، وتلك النباتات التى أزرعها فى شرفتى وأصص الزرع الواقفة أمام باب شقتى، كما أنها أكدت لى أنها رأتنى من شرفتها وأنا أزرع بنفسى تلك المساحة أمام باب العمارة..

حكت أنها تعبت كثيرًا فى العثور على رقم تليفونى لتتعرف على المرأة التى تحب الزرع والموسيقى وتسير مثلما تطير الفراشة وتجامل الناس بوضع ورقة مكتوبة على الكمبيوتر تلصقها على زجاج باب العمارة لتهنئ المسلمين بعيد الفطر وعيد الأضحى، والمسيحيين بعيد القيامة وعيد الميلاد

وتهنئ هذه على زواج ابنتها وتواسى ذاك فى وفاة والده.

كنت أتسمع إليها وأنا فى غاية الدهشة لأن فى عمارتنا جارة واحدة ترى حسنة واحدة فى التعامل مع المرأة الوحيدة. تقدمت خادمتها بأنواع من التسالى من لوز وبندق ولب أبيض وأسمر وسودانى وكاشو مع الشاى. فى تلك الزيارة أكدت "نادرين" على ضرورة أن نكون أصدقاء فأكدت لها أننا صرنا هكذا بالفعل منذ دخلت بيتها واسترحت إلى دفء حديثها.

حدث أن توطدت العلاقة بينى وبين "نادرين" ورحنا نتبادل الزيارات والهدايا وحكايات الطفولة والصبا، فتحركت البركة الساكنة فى أجواء العمارة بأشياء جميلة. كنت أحس فى اقترابى من حياتها أننى أقرأ كتابًا مختلفًا وأنا أرى عشقها للحياة يتفجر حين نذهب إلى النادى وحين ترى فيلمًا أو تقص على شيئًا من أسرارها وحكاية زواجها المباغت من رجل لم تعرفه جيدًا قبل الزواج لكنها تواصل الحياة معه لأسباب مقنعة باستثناء أولادها.

أكثر من مرة راحت "نادرين" تدعونى للخروج معها ومع أطفالها، وكنت أرى بنفسى رغبتها الجارفة فى الذهاب إلى "المولات" ومتعة "الشوبنج" حين تمسك بسلة متحركة وتدفعها أمامها مثل رفيق رومانسى تراقصه وتنسجم مع إيقاعاته. تملأها بسلع ربما لا تكون فى حاجة إليها.. قالت أكثر من مرة إنها تستشعر متعة مدهشة وهى تسير وأمامها سلة متحركة فتملؤها لآخرها بسلع وبضائع من الفاترينات الملونة ببضائع وسلع مستوردة.

دعوتها أكثر من مرة لحضور عروض مسرحية وسينمائية، ومع الوقت تنامت علاقتى بـ"نادرين" وأطفالها، وكان زوجها كثير الغياب عن البيت بسبب عمله وغيره..

سمعت أن سكان العمارة يتندرون فيما بينهم عن تلك العلاقة التى نشأت بين امرأة متزوجة وامرأة وحيدة. وكانت "نادرين" تجزم بأن سكان العمارة أغبياء وهم مثل طيور جارحة، وأنهم يتعاملون مع بعضهم البعض كما لو كانوا يعيشون فى جزر منفصلة. كانت "نادرين" تسخر منهم وتضحك وهى تملأ السلة المتحركة بمبيد صراصير ونمل وحشرات طائرة..

وفى مكان آخر من "المول" ملأت السلة بشيكولاتات وبسكويتات وأدوات تنظيف ومأكولات جاهزة ونصف جاهزة. وعند الكاشير دفعت مبلغًا مبالغًا فيه وعلى وجهها وهج الخارجة لتوها من أحضان رجل.

وذات يوم نادتنى على وجه السرعة، فأغلقت شقتى ومرت علىَّ وأخذتنى فى سيارتها للنادى. علمت منها أنها ذاهبة لعمل وترغب فى أن تدعونى بعده على غداء وجلسة جميلة فى النادى. ذهبت وأنا أمنى نفسى بأننى سأتركها لعملها وأتحرك أنا بين المساحات الخضراء الشاسعة فى النادى حيث السماء مفتوحة بتشكيلات جمالية للسحب بين أدوات الضوء والظلال.

فكرت أننى أبدًا لم أحسب "نادرين" على الطبقة العاملة وهى لم تحدثنى من قبل عن مسألة عملها هذه.

فى الطريق أفصحت "نادرين" عن المسألة برمتها، إنها تعمل عملاً "بمزاجها" مع نخبة من سيدات مرموقات من النادى. تعرض عليهن منتجات شركة عالمية لأدوات التجميل، وأنها يمكن أن تحصل خمسة وعشرين فى المائة من قيمة المبيعات. وهذه النسبة قد تصل إلى آلاف الجنيهات. وأن المسألة كلها قائمة على عيون لها فى النادى ترصد التجمعات النسائية. "عزومة"، عيد ميلاد، حفل تكريم، حفل زواج، أو غيرها، وأن صاحبة

الدعوة أو الحفل أو عيد الميلاد لها هدية من منتجات الشركة بمبلغ وقدره.

عندما وصلنا فتح لنا باب النادى الذى لم أحلم مرة بدخوله، وكأننا فى موكب مهيب. وسرعان ما أوجدت لى "نادرين" مقعدًا وسط جماعة من النساء الثريات واللائى حرصن على العطور والماكياج حرصهن على تنفس الهواء على الرغم أن "القعدة" فى النادى.

لم تكن الجلسة جلسة عمل بالمعنى التقليدى. كانت احتفالا بزواج واحدة من العجائز اللائى بالغن كثيرًا فى وضع ماكياج وعطر من منتجات الشركة، وبدت على المائدة مع الحلوى المقدمة والمشروب البارد مناديل مطبوع عليها اسم الشركة. بعد الجلسة قدمتنى "نادرين" لواحدة من النساء بدا عليها أنها عضو مهم فى الشركة لتمنحنى فرصة عمل أتحرك به فى أوساط الموظفات. ابتسمت المرأة ومالت على "نادرين" ففتحت جارتى حقيبة يدها لتستقبل مبلغًا كبيرًا من المال. فى تلك الليلة لم أنم وسؤال مثل مسمار كبير يخبط رأسى عما يحدث حولى..

وفى اليوم التالى حدثتنى "نادرين" بضرورة الصعود إليها. فى البدء ترددت ثم حاصرنى هاجس الحفاظ على علاقة ود بسيطة بينى وبين إحدى الجارات، كسرًا لحصار العزلة المضروب حولى بإحكام من الأزواج والزوجات، فصعدت إليها فإذا بى أراها تقف بين ركام من الفساتين الجديدة، وقد ارتدت أحدها وهى تتأمل نفسها فى المرآة، ثم راحت ترتدى ثوبًا وتنزع آخر وترغب فى أن تثنى على قدرة الترزى العبقرى الذى اكتشفته اكتشاف أديسون للكهرباء وكولومبس لأمريكا.

العجيب أنها كانت تنظر لنفسها فى المرآة بزهو شديد، وتتحدث عن

إعجاب الترزى بجسدها ودهشته بأنها زوجة وأم لثلاثة أطفال، ولها جسد فتاة لم تتزوج بعد.. أخذتنى "نادرين" على جانب وأفصحت أنها ترغب فـى أن تسدى لى خدمة فتعرفنى على ذلك الترزى..

بدا أن "نادرين" ترغب فى إبداء فرحها وزهوها بصناعة الرجل.. وفـى غمرة إحساسها بالفرح والزهو راحت تضع شريط كاسيت فى جهاز إستريو كبير عليه أدوات ماكياج وعطور من منتجات الشركة ثم راحت تهز جسمها بالرقص. نسيت أن أؤكد أنه لم يكن مكان بشقة "نادرين" بما فيهـا الحمـام والمطبخ إلا وبه أدوات تجميل وعطور وورق كليـنكس وحقائـب جلديـة مطبوع عليها "ركلام" الشركة العالمية. بعد قليل بدت "نادرين" ومع صـخب الموسيقى وكأنها فى زار وهى تومئ لخادمتها بأن ترفع صوت الكاسـيت، وتغلق النوافذ والشرفات.

فى غمار الرقصة وصخب الموسيقى ودخان سجائرها وذلك الكم الهائل من مستحضرات التجميل المتناثرة على كل تفاصيل المكان كانت "نـادرين" تبدو مثل فرس جامحة تمتلئ ببهجة غامضة وحيوية.

وفى لحظة أسكتت "نادرين" الموسيقى وبدا وجهها بين شعرها المهـوش وكأنها بالفعل خارجة من زار وبصوتها الذى يملأه الشجن قالت..

"مش الترزى ده عبقرى بذمتك.."

من بين دخان سجائر جارتى وصخب الموسيقى رحت أسحب نفسى شيئًا فشيئًا.. إلى أين..؟ لا أدرى...

ليل آخر لامرأة

لم يكن بيتنا بأفضل كثيرًا من بيت عمتى إلا أن المساحة الواسعة من الاخضرار العفوى والأشجار التى لم يزرعها أحد وخرجت للحياة رغم أنف الأرض والنباتات الصامتة حولها كانت تعد بقدر بسيط من الراحة..

حرضنى هذا أن أفتح طاقة للضوء فى نفق ليس له آخر. هكذا رأيت والطريق مفرط فى الليل والعتمة، وقد رمتنى عمتى بالجنون والطيش والرعونة لأننى خرجت فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل.

فى الحى العتيق الذى تسكنه عمتى شعرت بجدران بيتها وسقفها والشوارع والحارات تطبق على أنفاسى، وفى اللحظات القليلة التى أرانى فى غيبة من عيون عمتى تمارس سطوتها على رأسى كنت أتذكر بيتنا.

مجرد رؤية الأشجار فى الصباح الباكر يخفف كثيرا من وطأة الصدمة التى مررت بها منذ أيام حين مات أخى الكبير والذى كنت أحبه حبًا جمًّا. لم يمت موتًا فيزيقيًّا ولكنه اختفى اختفاء إراديا من حياتنا أنا وأمى وأخوتى وعمتى.

مات ميتة أعفتنا جميعًا من النواح والبكاء واجترار الحزن، لكن حزنا آخر بدا لنا مثل جثة ممتدة بطول الأرض والشوارع وعيون البشر، لابد من دفنها سريعًا حتى لا تنتشر رائحتها النتنة فى بقاع الأرض وأنوف البشرية.

كان لابد إذن من التمرد على الحزن فى صيغته القاتمة. ولم يكن هذا بممكن إلا بالخروج إلى الفراغ والشوارع الواسعة، والدنيا التى صارت بموت أخى أضيق كثيرًا من خرم الإبرة.

كان له تأثيره السحرى على أدمغتنا وأفكارنا وحياتنا..

صدقناه بكل ما تحوى الكلمة من معان. وفى لحظة عندما باع نفسه للشيطان مقابل عدة سيارات أمريكية وفيللا فى الساحل الشمالى لامرأة سلمت نفسها قبله لعدد من الشياطين، رأيته هكذا يقف أمامنا عاريا من مسوح مزيفة رأيناه بها كثيرًا.. مسوح للصدق والنبل والشرف. ربما كان يلبسها مثل ثياب تنكرية لازمة لحفل السخرية من براءتنا الواضحة والتى ظلت سنوات تجرى فى عروقنا مجرى الدم.

ظلت النار متقدة فى بيتنا فنصحتنى أمى بالابتعاد وهى تعلم أن عمتى أول من استشرف بعينيه وعقله ورزانته الواهية وصمته الغارق فى الكذب وكلامه الذى يلبس مسوح الصدق والنبل والشرف وهو غارق حتى أذنيه فى نهر كبير من النفاق والدجل.

نعم صدقناه جميعًا إلا عمتى، لذا كان لابد أن أجىء إلى بيتها التى تعيش فيه وحيدة، بعد موت زوجها وابنها وأبيها وأخيها، وحين كنا نقضى الليل فى الحديث عن أخى الذى لا أصدق ما فعله بنا، أراها تنظر إلى جدران بيتها وهى تستحلفنى بأن أهدأ وتقول:

"لا أرغب فى مزيد من الموتى.."

بعد وقت لم تجف فيه الدموع أحسست بشوق جهنمى لجدران بيتى، ربما صار هواؤها بلسمًا شافيًا من مرارات الحزن الأخيرة. قلت لعمتى:

"الليلة سأكون فى حضن بيتى".

سخرت من عجزى فى مواجهة الحزن وأخبرتنى أن الوقت ليل والصباح رباح وأننى لن أجد حتى سيارة "تاكسى" ضالة تحملنى إلى بيتى.

أزمة الأيام الماضية جثمت على روحى وسدت الرئتين بسدادة من

فلين. ولما استشرفت عمتى اختناقًا محققًا تركتنى لأخرج.

سياط جلد الذات تذكرنى بعناصر حرصى وكياستى فى تجنب ما حدث، وكل تصورات العقل والمنطق تبوء بالفشل الذريع أمام تلك الوحشة الممتـدة فى شوارع وسط البلد.

سكون وحركة مشلولة. ضربت كل منطق يمنع امرأة محزونة مـن أن تسير وحدها فى الشارع المحفوف بالليل والمخاطر. فعلـت وكـأننى أفـتح صدرى لليل.

لم يكن فى الطريق غيرى وعلى البعد أضـواء تـشى بمقهـى يـسهر مضطرا بتائهين وضالين ومحبطين وعاطلين، والشارع الأسـفلتى الممتـد تختفى فيه الكائنات عدا قطط صغيرة وأمها تكشف بضوء عينيها الطريـق. ابتسمت وانحنيت أمسد ظهر واحدة بينما فرت الأخريات. جاءت الأم تبحث بحسها الفطرى عن شر يكتنف ابنتها. ولما لم تجد اطمأنت وهـزت ذيلهـا وتركت لى ابنتها السوداء الجميلة.

قطة سوداء فى الليل واليوم هو الثالث عشر والليل يـضرب بجـذوره فيحول الفاتح لغامق مفرط فى دكنته. كل عناصر الشؤم متوافرة يـا سـيدى الحزن وكلها تؤازرك حتى تمتد بطول الأرض وسمائها وأنا جد لست حائرة.

لم يكن للقطة السوداء من ذنب فى لونها مثل الزنوج والصفر والـسمر إلا الجينات وعم مندل – الله يسامحه – صاحب قانون الوراثة. ظلت الرغبة فى تجاوز الشرنقة والنفق المعتم تدفع بخطواتى إلى الأمام، ففى السير تتفتق عرى الحزن شيئًا فشيئًا.

فجـأة لاح عجـوز ضرير يمسك بعصاه ويزيح بها ركـام الصمـت

والعتمة فى الشارع. لم يكن الليل والحزن والحالة السوداء فى حاجة إلى مزيد، لكن الرجل مفرط فى الثقة فى استواء الطريق راح يسير بتؤدة فوق الإسفلت. بدت دهشتى بحجم اتساع الليل حولنا ودبت فى نفسى شفقة على الرجل الذى لا يرى وجهته فاقتربت منه وأخذت بيده.

فى الطريق أخبرنى أنه يقصد محطة الأتوبيس، فقد ضجر بالليل فى هذا الحى وله بعض أقاربه الطلبة الذين يعيشون وحدهم فى بولاق الدكرور. أكدت للرجل استحالة أن يجد سيارة أتوبيس فى هذا الوقت المتأخر من الليل، وأننى فى الشارع منذ أكثر من الساعة أمضيتها فى السير ولا جدوى.

صوت دقات عصاه على الأرض كانت توخز فى نفسى شيئًا فى ليل وسط البلد المتوجس ببشر وسيارات ومارة. ابتسم الرجل وكأنه يسخر من اليأس الممتد فى طبقات صوتى وطالبنى بأن أفتح للبصيرة وليس للبصر عيونًا أخرى. كنت راغبة فى أن أصدق حتى أمله الكاذب، وكأنه لم يزل جد واثقًا من حسن بصره وبصيرته.

ظل يتحدث بما يشى بأنه ما زال متعلقًا مع عصاه بأمل ليس واضحًا تمامًا وأن هذا هو الذى يبقيه حتى هذا العمر متمسكا بأهداب الحياة.

"وهو احنا عايزين إيه غير كدة...!!"

فى الطريق تكلم عن أنه يثق فى الله الذى خلقه هكذا بلا بصر لكنه أيضًا خلقه ببصيرة تفوق بصيرة كل الذين يملكون عيونًا مفتحة لآخرها. ضحك ساخرًا وقال إن هذه العيون لا تأتى إلا بما هو أسفل أقدامهم وأن على فقط أن أذهب به إلى موقف الأتوبيس وأدعه هناك وأمشى إلى حال سبيلى.

أكدت للرجل أن الوقت جد متأخر وأنني حقا لا أجد حتى سيارة تاكسي تنقلني إلى بيتي، وأنني لا أعرف بحق حي بولاق الدكرور هذا. لم يخل صوت الرجل من ملامح تشي بمشاعر رجل مبصر تجاه امرأة تمسك بيده. ابتسم الرجل وهو يشمشم مثل القطط رائحتي وقال وكأنه يخفي شيئًا أن عليَّ فقط أن أصله بمحطة الأتوبيس، ولأدع الله يتدبر الباقي.. ثم تباطأ في السير وقال:

"بس.. إنت حلوة قوي.. باين من صوتك.. مليان حنية.. بسرعة روحي قبل ما تتفتح عليكي عيون جهنم الحمرا.. أو أي لون تاني.."

كنت مندهشة من كلمات الضرير التي أراحتني أكثر كثيرًا من كلام أمي وجدتي وعمتي ورغبت لو يطول الوقت لتسري تلك الرائحة في أنفه لأطول وقت ممكن.

مع الوقت والليل تطرق الضرير في حديثه ساخرًا من امرأته التي تدخل فراشها مبكرة لتلحق بآخر طبق أرز من طبيخ الملائكة، وأنه يكره صوت شخيرها الذي يجده تعبيرًا عن إحباطها المتراكم نتيجة خلو أوعية الملائكة من أي طبيخ، وأن بيته آخر مكان يصلح لليل حيث تأكد له أكثر من مرة أنه من الكائنات الليلية حتى من خلال عماه.

هكذا قال وهو يضحك رافعًا نظره إلى السماء.

أخبرني الرجل أيضًا أنه لا يجد مفرا إلا بالذهاب إلى أقاربه، عدد من الطلبة الذين أتوا من الريف – موطنه الأصلي – ليسكنوا بجوار الجامعة، يظلون ساهرين للمذاكرة أو المسامرة واحتساء الشاي والقهوة وتدخين السجائر والشيشة، وأن كل هذه المباهج تروق له بعيدًا عن بيته وشخير

امرأته، فضلاً عن تبادل آخر النكات التى يجلبها أحدهم من الإنترنت.

"تكت خارجة طبعًا.. ما.. ما تآخذنيش يا آنسة.. مش آنسة برضه..؟"

قال الضرير:

"الإنترنت دا خطير جدا. الناس بتبيع وتشترى وتعرف وتتثقف وتسمع نكت وتعرف أخبار الناس فى الدنيا.. كوارث ونكبات وهزائم وانتصارات ومجاعات".

"إنتِ ساكتة ليه.. سمعينى صوتك"

ابتسمت وبدا أن هذا لا يكفى فتعثرت عصا الأعمى فى نهاية الرصيف وبدا أن هناك منحدرًا لابد من تجاوزه. من بعيد لاحت أرض موقف السيارات فارغة بلا صوت. موقف الأتوبيسات فارغ إلا من عربة واحدة ركنها سائق ومحصل وجلسا يتسامران مع أكواب الشاى والسجائر على مقعد حجرى طويل، وضوء صغير شاحب لأحد الأعمدة المتبقية فى الليل.

لا أدرى لماذا جئنا سريعًا والضرير يضحك ساخرًا حتى من الهواء الذى يتنفسه، وأنا أتأبطه. مرت سيارة تاكسى فاستوقفتها وأخبرت الرجل بأن يصعد لأوصله أولاً ثم أعود إلى بيتى. وفى لحظة نهض المحصل والسائق عن المقعد الحجرى وقدما فى اتجاهنا، فسألتهما عن وجهتهما فقالا بصوت هادئ متلعثم..

"بولاق الدكرور..."

كنت غير مصدقة فسألتهما لأستوضح فقالا:

"بولاق الدكرور"

قبل أن يغادر الضرير راح ينظر إلى السماء أو هكذا بدا، ويعبئ أنفه

برائحتى..

"أكيد ح نشوف بعض تانى.."

ثم راح يتحسس الطريق بعصاه وكأنه يركض فى اتجـاه الـرجلين. تحركت سيارة الأتوبيس ورحت – أو هكذا بدوت – أملأ رئتى جيدًا بالهواء.

تداعيات دجاجة مرحة

جاءنى صوتها عبر الهاتف. قلت فى نفسى: "ياااااااه.. بعد عشرين سنة".. بعد عشرين عامًا من الغياب فى السفر والبعد والتنائى.. سرنى أن بادرت "أروى التونى" باللقاء وحددت فى لهفة يومه وساعته. الغريب أنها ناولت السماعة لزوجها ليحدثنى ولم أكن أعرفه من قبل. بحثت عنها كثيرًا ثم علمت من أختها بأنها تزوجته وسافرت..

كلمات مثل مانشتات الجرائد دون أدنى تفاصيل، وكنت و"أروى" نعشق التفاصيل الصغيرة عن ابن الجيران واختناقات الهوى فى مساءات الصيف السعيدة. والسهر تحت قمر سطح البيت وصوت أم كلثوم يسرى ليلف كل البيوت المعبأة برائحة الشاى الساخن وحكايات الحب الواضحة والمستترة.

كنا نرى النوافذ مرصوصة فيها القلل الفخارية، تلقى بظلالها على البيوت المقابلة لترسم رءوس رجال ونساء صامتات، فتتجرع ضحكات صغيرة. كانت "أروى" صديقة الطفولة والصبا والحلم والتجارب المحبطة فى بدايات التعرف على الحياة فى البيت والشارع والوطن والدنيا، لتبدأ رحلتنا مع الوعى والمعرفة والسياسة والفن ومظاهرات الطلبة والقنابل المسيلة للدموع والفرار عبر البوابة الخلفية للجامعة، لتجاوز جنود الأمن المركزى الذين نشفق عليهم ويضربوننا.

كانت تقول وهى تبتسم..

"إنهم لا يقصدوننا تحديدًا"

وكنت أصدقها..!

تخرجنا فى الجامعـــة وتزوجنـــا وسافرنـــا، كل واحدة إلى بلد وحياة

وغربة، والذى عاد أولا راح يبحث عن الآخر دون جدوى، ثم آثر أن يركن إلى ضفاف الصمت والنسيان.. كانت "أروى" جميلة على نحو ما وكنت دونها فى الجمال والفتنة والمرح والذكاء، وكنت أحبها ربما أكثر من أخوتى.

كانت "أروى" تحب الغناء وتمارسه نكاية بنا، فلم يكن صوتها جميلاً، إلا أنها كانت تصر على أداء أغانى عبد الحليم ونجاة وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش بالحماس نفسه والدفء ورومانسية الأيام، وكنت أمضى وقتًا كبيرًا فى بيت "أروى" المفعم بالمرح دائمًا، فأمها سريعة النكتة وأبوها يتابع أبناءه وبناته بمنتهى الود والمرح.

كان يمنح كلا منهم حصته فى الحنان مثلما يمنحهم مصروفهم اليومى، وكنت كثيرًا ما أقف عاجزة عن تصور بعض هذا الود وبعض هذا الحنان فى بيتنا. و"أروى" تقول كلما طالبتها بالمذاكرة فى شقتنا...

"بيتكم مليان نكد"..

وكنت أدرك جيدًا فحوى الكلام، فقد كان أبى لا يجعل فرصة تمر من بين يديه دون أن يبعث فى البيت قدرًا لا بأس به من النكد، ولا يترك شاردة أو واردة دون أن يصوغ منها مشاجرة معى أو مع أمى أو أى من أخوتى، ودائمًا الأشياء تتسابق أمام عينيه لتمنحه نفسها على طبق من فضة لتحقيق مآربه.

كنت أهرب من بيتنا لأبقى كثيرًا فى بيت "أروى" التى صرت مع الوقت أدعوها بالدجاجة المرحة لقصرها وبعض بدانتها، وكثير من المرح الذى تبتعثه كلما هلت. أكثر النكات التى ما زالت عالقة فى ذاكرتى هى من صنع أمها وأبيها وأخوتها، ولابد أن تقابلنى فى الصباح لتلقى لى بآخر نكتة..

كنت أتخفى فى النوم أو المذاكرة حتى لا يسألنى أحد عن أسباب هجرى لبيتنا وحبى لبيت "أروى".

قررت أن أفتح لأروى قلبى وأحكى لها ما حدث طوال فترة البعد والغياب.. سأحكى لها ما حدث لى بالضبط، سأخبرها بحبيبنا المشترك "فوزى"، والذى لم أفتح له أذنى وقلبى إلا بعد زواجها وسفرها، حين جاء متململاً يبثنى أحزانه، ويفرط فى الحديث معى لفترات طويلة، ويرافقنى فى كل خطواتى، بعدها جاء يبثنى غرامه ورغبته فى الزواج منى. الغريب أننى ومع الوقت ضبطت نفسى متلبسة بمشاعر الحب نفسها.

يومها طفا على سطح الأفق وجه "أروى" وأرجأت "فوزى" قليلاً لأنه فاجأنى بطلب الزواج، وأننى للآن لا أدرى إن كان كل منا قد أحب الآخر، أم أن العالم قد خلا علينا نحن الاثنين من بعد سفر "أروى".

يومها سار مسرعًا وقد نسى معى مفاتيح بيته وسيارته ودرج مكتبه، ثم توالت الأحداث بطيئة ومملة حتى جاءنى يسترد مفاتيحه ويحكى لى عن رئيسه فى العمل الذى يفوت عليه فرصة التثبيت كلما حانت. ثم جاءنى ذات يوم بشيك وصورة لفتاة وعقد عمل فى الخليج. كان قد لاقى أسرة مصرية، صار لها فى الخليج أكثر من عشرين عامًا. لهم بنت جميلة، فصار الكلام به بعض الوئام، فقرر أن يعالج مشاكله العاطفية والعملية سريعًا بالزواج والسفر.

أوصلته المطـــار وعدت وقد جرحـــت يدى، ظللت لفترة طويلة وآثار الجرح واضحة.

فى الموعد المحدد جلست أنتظر "أروى" ببهجتها ومرحها المعهوديـــن.

فكرت أننى وبعد عشرين عامًا سأراها وأجلس إليها وأبدد معها كآباتى...

سوف نستعيد حكاياتنا بتفاصيلها الدقيقة...

سوف نضحك من قلوبنا ونمرح..

سوف نريق النكات على قارعة الطريق وفى مفترق الطرق..

ربما أرادت مثلى أن تعرف – تفصيلاً – ما الذى فعلته العشرون عامًا فينا.

فى الموعد المحدد حدث شىء غريب. رأيت من تدخل على مثل امرأة عجوز جفت روحها ونشفت نضارتها وبح صوتها وانطفأ بريق عينيها الذى كنت أميزها به من بين كل بنات الحى والمدرسة والجامعة. لم تكن "أروى" التى أنتظرها إلا امرأة هشة بها مسحة من بقايا شكل وصوت ونظرات عبر نظارة مقعرة.

أخبرتنى أن زوجها يركن السيارة المرسيدس فى الشارع وسوف يصعد.. لم أكن قد رأيته من قبل. حين دق جرس الباب ودون أن تتحرك قالت لى إنه هو.. وشعرت بوطأة اللحظة، ولا أدرى لماذا داهمنى شعور حاد بأننى أمام مارد، أو شبح أو عفريت قمقم. كان طويلاً، بكتفين عريضين، وعينين واسعتين غير عميقتين وفم كبير وأنف ذى فتحتين كبيرتين بوسعهما شفط هواء الصالة والبيت والحياة.

بدا أن "أروى" لم تكن تشتاق لى مثل شوقى لها، أو أن الشوق لم يعد على أجندة أعمالها. لم تتحدث عن شىء خارج إطار تعب السفر والغربة ودرجة الحرارة التى تتعالى هناك حتى تشعر أن لها قوامًا لزجًا. حكى زوجها عن أنهما ذهبا للطبيب أكثر من مرة بحثًا عن مسألة الإنجاب، وأنه

كان بإمكانهما البقاء فى الخليج طول العمر. لولا مسألة أن رئيسه فى العمل أنهى عقده سريعًا لأسباب لا يفهمها.

ثم كانت "أروى" تبدو مكملة لحجته فى العودة كما كانت فى السفر/ الذهاب.

كنت أنظر إلى عينيها وكأننى أستجديها أن تبتسم وتضحك أو تغنى أو تحكى لى عن حياتها هناك وعن السعادة التى صرت أعتقد أنها وهم وسراب.. حكت أنها ودت لو تكون لها ابنة وتسميها باسمى، لكنه لم يحدث وربما لن يحدث. صمتت فقد جاءت نسمة ثمّ سرعان ما مرت وشعرت بقدر هائل من البرودة القارسة وأنا أراها تنظر باستنكار إلى لوحاتى على الجدران وإلى كتبى المتراصة بعناية فى مكتبات صغيرة فى أنحاء الشقة. حتى نباتات الظل والشمس لم تلق من عينيها ترحيبًا. ربما لا تتذكر "أروى" أننى كنت أهوى الرسم، والقراءة والكتابة والزرع وسرد الحكايات..

استغربت نظراتها وكلامها واستهجانها لكثرة اللوحات والكتب والزرع. كنت أشعر بصعوبة أن أختزل شوقى لها ولعالمنا الجميل إلى تلك النظرات الباردة والحامية فى آن واحد. تحرك زوجها إلى الشرفة يحتسى الشاى، واقتربت من "أروى" ورحت أتأملها.. نفس العينين.. ونفس لون البشرة، نفس الفم، ونفس الصوت لكنها لم تكن نفس الروح، حتى تبدلات الجسد نحولا وسمنة على جسدينا لم تشفع للذى حدث أن يحدث.

أخبرتها أن "فوزى" تزوج فسألتنى..

"فوزى من؟" وسألت نفسى بالبرودة نفسها: وما الجدوى..؟

تذكرت أن جرح يدى الذى حدث يوم أن أوصلته للمطار التأم تمامًـــا.

حين فرغ زوجها من الشاى طالبنى فى ود مفتعل وأدب القردة بفنجان من القهوة وكذلك فعلت هى. وضعت القهوة على عين البوتاجاز ورحت أستعجل الوقت أن يمضى والحر يزيد من وطأته و"أروى" تنظر إلى أثاث مطبخى بكثير من التأفف والاستعلاء.

قالت لى: بيتك بسيط..

فرددت: لقد صنعته قشة قشة وضمنتى جدرانه جيدًا بعد انكسارات كثيرة.

أردفت: بس لأ ما تعيشيش لوحدك.. لازم نجوزك..

كنت أحس أننى أسمع أبى وعناصر الصوت والكلام تذكرنى ببيته.

شربت "أروى" قهوتها وكذلك زوجها وخرجت خلفهما أوصلهما بكلمات مقتضبة على شاكلة..

"شرفتونا.. آنستونا..

لا تقطعوا الجوابات..

نحب أن نراكم كثيرًا.."

ثم بدا أنه لن يكون هناك مجال بيننا يرغب فى أن تتفتح زهور أغلقت أوراقها إلى الأبد.

زهور وحشية

بنفسج وفل وياسمين وورد بلدى وجذوع خضراء تحيط الباقة من كـل ناحية مثل حدود أمان وورق سلوفان ملون وشريط أحمر أخـذ تـشكيلات البهجة والفرح على الباقة التى وقفت بمفردها أمام باب الشقة. وهى تـسمع بقايا خطوات تهرول على السلالم، مصحوبة بيقين حاد أنه ربما كان عامـل محل الزهور.

لم تكن دقات جرس الباب تزعجها كما كان يحـدث مـن قبـل، الآن صارت تصادر على البقية الباقية من أعصابها. فى بعض الأحيان تتحـرك إلى الباب مدفوعة بأمل جميل أن يكون القادم أحدًا ترغب فى رؤيته.

بدت الباقة مثل حفنة ضوء مرت على القلب فجأة، فأشـعلت سـيجارة وتنهدت وهى تدير الباقة التى استقرت على المائدة الكبيرة. كانت تتسع لعدد من زملائها وزميلاتها وصديقاتها وأخوتها كل مساء. راحت تتحرك حـول المائدة وكأنها ترغب فى أن ترى باقة الورود من كل جانب، وكأنها تغتسل تحت رخات المطر فى أحد أفلامها.

لم تجد بطاقة أو "كارت" يمنح المفاجأة الغامضة بعضًا من جمال اليقين بأن من أرسل الزهور أحد تعرفه جيدًا. فتشت بين الزهور علّها تجد شـيئًا يدل على صاحب اللفتة الرقيقة والتى جاءت فى ميقاتها.

حدثته "ندى" وهذا اسمها واسم الشهرة وفعل أجمل لحظات الصباح. كان اسمه أول ما تبادر إلى ذهنها، على الرغم من النهاية المأساوية التـى آلـت إليها قصة حبهما معًا. ما زالت تذكره فى مواقيت الحنين نفـسها، وأول مـا

تفتق عنه ذهنها المتعب بوهج الماضى الذى أزف وولى ومرارات الحاضر ورهبة المستقبل. أتت بأجندة التليفونات القديمة ولم تفتحها. أدارت سريعًا الرقم الذى ما زالت تحفظه عن ظهر قلب وراحت تدير معه حوارًا، لم يفصح مع الوقت أنه حقا الذى أرسل لها باقة الزهور فلم تتردد فى أن تسأله مباشرة.

".. إنت بعتت لى ورد.."

ارتبك وهو يبدى أسفه الشديد أنه أبدًا ليس هو. بدا كأنه يتنصل من ذنب يلاحقه وبعد وقت أجزم لها أنه يفكر فى ذلك منذ اختلفا وتفارقا لكنها تفاصيل الحياة التى تلفه فى طاحونتها. حيته سريعًا ووضعت السماعة. دخنت سيجارتها رغم تعليمات الطبيب وسارت فى أرجاء الشقة تنتقى جانبًا مناسبًا لباقة الورد.

هرولت بجسدها الذى امتلأ قليلاً وما زالت تحرص على حلمها القديم بأن تظل رشيقة القوام، ربما تتذكرها السينما فى يوم من الأيام. فكرت فى "شاهر" كاتب السيناريو، والذى صار مرموقًا على نحو ما، أخذت بيده أكثر من مرة، ربما ما زال يحمل جميلها وقدرًا من الامتنان..

نهضت وأدارت القرص واكتشفت أنها ما زالت تذكره لولا الرقم الأخير فواتتها على الطرف الآخر رسالة مسجلة بصوت ناعم أن هذا الرقم تغير إلى... وفى محاولة مع الرقم الجديد جاء صوت زوجته مفعمًا بالحيوية لتخبرها أن شاهر مات منذ عامين منتحرًا، فقد ألقى بنفسه من الطابق العشرين بأحد الفنادق الفارهة التى كان يسهر بها وأصدقاؤه من الكتاب المحبطين.

أغلقت النافذة التى يأتيها منها صوت الراقصة اللولبية التـــى تـــستحوذ وحدها على ثلاث شقق فى الطابق نفسه. لا تهدأ شقتها من استقبال المدعوين فى عزائم وولائم وحفلات.

وضعت "ندى" السماعة وتحركت فى الشقة التى تحوى جدرانها صورًا لها فى أفلامها المختلفة. فى المطبخ الذى حرصت أن يكون بنـــاء مـــستقلا بموتيفات فنية راحت تعد لنفسها فنجانًا من القهوة وتدخن سيجارة أخرى. قبل أن تدخل المطبخ تذكرت أن "أم فاطمة" لم تأتها ربمـــا لعـــصبيتها الـــشديدة وأكدت على نفسها لتزيح ركام الحزن والكآبة أن هـــذا لـــيس ســـيئًا علـــى الإطلاق، فلابد من بعض المجهود العضلى للحفاظ على حيويـــة عـــضلات جسدها التى كانت تنظر إليه فى مرآة الحمام وتتذكر أن رزقها كان فى هـــذا الجسد وهذا الجمال، لكن بموهبتها أيضًا.

لم تجعل من جسدها مطية لأى رجل أو فكر أو اتجاه. حاول الكثيرون من أصحاب الاتجاهات السياسية أن "يؤدلجوا" فنها. وعت اللعبة من البدايـــة وأخبرتهم جميعًا أنها فنانة، وفنانة فقط، ستلعب الأدوار التى تنحـــاز للحـــق والخير والعدل والجمال، ولن تضع أحد يجعلها وقودًا لناره أو نوره..

فى أوقات كثيرة ينتابها نوع من الضعف وهى تتذكر الممثلـــة الفلانيـــة التى يصعدها حزب كيت، وممثلة غيرها يصعدها "إخوانا البعدا" ويفرضونها كنموذج أمثل للفتاة فتأخذ أدوار الخاضـــعة والمستـــسلمة، وتلعـــب الأدوار المرسومة لها بإتقان شديد وتتماهى مع ظالميها وقاهريها. كل ما برأسها أن تلبس وتتزين وتنتظر فتى أحلامها الذى حتمًا سيأتى على فرس أبيض. أحيانًا يروق لها أن تخرج على النص ويلاحقها هاجس ملحٌّ أن خلاصـــها وربمـــا

خلاص الآخرين فى ذلك.

أغلقت نافذة المطبخ التى تطل على نوافذ شقق الراقصة وفكرت فى باقة الزهور التى أدخلتها فى أسر الحيرة، وركزت انتباهها مع القهوة وهى تتابع النسق الذى حرصت عليه فى مطبخها.

أن تلصق صورها على الثلاجة وهى مع وزير الثقافة فى الحقبة الماضية وأخرى وهى مع الكاتب الجميل يوسف إدريس والذى جسدت له أغلب بطلات قصصه ورواياته وصورتها مع المخرج العالمى فيللينى، وصورة لها مع اليزابيث تيلور وريتشارد بيرتون وهما يزوران مصر.

بمقدورها لو قدم أحد عليها الآن أن تحكى له حكايتها الطريفة مع اليزابيث تيلور وريتشارد بيرتون حينما دعتهما إلى بيتها هذا وعلى مائدتها هذه ذات يوم وطبخت لهما ملوخية بنفسها. يومها غرقت اليزابيث تيلور هى وريتشارد بيرتون فى غرام الملوخية وكانت "ندى" تضحك وهى تقول فى نفسها: ابقوا قابلونى لو مثلتوا كويس بعد كدة..

لصقت صور أصدقائها وأحبابها والمقربين من أهلها على الثلاجة والباب وجوانب من جدران المطبخ. فارت القهوة وهى تتابع الوجوه فى الصور وهى معهم وتلك الأيام وبهجتها.

فكرت أنه ربما كان صاحب باقة الزهور ذلك المخرج الشاب وقتها الذى ساعدته كثيرًا وكان يجلس تحت قدميها لتمنحه رضاها وفرصة إخراج فيلم ولو قصير لها. عرفت أنه تزوج ممثلة ناشئة تردد عنها سوء السمعة وهى الآن نجمة كوميديا البلاهة والخبط والرزع. بحثت عن رقمه ثم تذكرت أنه يدع جهاز الآنسر ماشين يقوم بالمهمة. رأته أكثر من مرة يتسلل لزيارة

الراقصة اللولبية جارتها دون أن يمر عليها.

بجوار المائدة مرآة مكسورة فكرت في تغييرها إلا أنها سرعان ما تنسى. رأت فيها درجة من الانبعاج والتشوه ووجه غريب عنها. ليس وجهها في الأيام الماضية. انتفضت لدقات الجرس على الباب. كان بائع الورد يدخل متوجهًا لمائدة الطعام ليأخذ باقة الورد وهو يعتذر بأنه أخطأ العنوان. مضى تاركًا الباب مفتوحًا وكذلك فمها مثل جرح.

تمارين الفرح

في السابعة صباحًا – توقيت بائعي اللبن والجرائد نفسه وباصات المدارس – حدثني صديقي النوبي بأن أترك الدنيا، وأذهب لرؤية ذلك الفيلم الجديد. سمعت عنه من أصدقاء كثيرين، ولم آبه لحماسهم، وربما لم يمنحني أحدهم فرصة هائلة للحماس بمثل ما فعل صديقي النوبي...

خرجت مبكرةً وأنا أبدو لنفسي امرأة شديدة المرح، وفرحت لتلك الحالة التي أبدو عليها رغم عوامل الضجر والملل وفقدان الرغبة في عمل أي شيء. ملأتني تفاصيل الحالة منذ فترة واستدعيت كل قدراتي على الصبر والسلوان حين رأيت الكثيرين والكثيرات تملأهم الحالة نفسها.

أخبرتني جارتي التي تشاركني الحالة – الإحساس بالملل والضجر وفقدان الرغبة في عمل أي شيء – بأن أختها التي نزلت عليها ضيفة ثقيلة لثلاثة أيام فاقمت فيها الحالة، ستنزل وسط البلد بسيارتها هذا الصباح، وعليَّ تجنب مشقة البحث عن سائق تاكسي له سيارة جديدة، يسمع موسيقى ناعمة ويقبل أن أنفرد وحدي بالسيارة دون أن يزعجني بآخرين، أو ينفجر كاسيت السيارة بصوت جهوري لمطرب لا أرغب في سماعه.

ولو أن المسألة لم تختلف كثيرًا بما آلت إليه الحال مع أخت جارتي التي لم تحدثني عن أختها إلا بكثير من الشكوى والمرارة.

أسلمت لها أذنين منزوعتين من حاسة السمع، وعينين منزوعتين من حاسة البصر، شردتا مع تفاصيل الصباح الغريب الذي لم أدرك معه قدرًا هائلا من لحظات تجلي الطبيعة بأشجارها الوارفة على جانبي الشارع،

وبمشروعات صغيرة للحب بدأها طلاب المدارس الفارين صباحًا من مدارسهم وفشلت بفضول المارة والباعة المتجولين والمتسولين وعساكر الشرطة وعيون العجائز.

تجاوزت بالفعل ثراء التفاهة الذى صار يعترى أغلب الناس حين ينفردون بآخرين لا يعرفونهم على نحو جيد. شكرت أخت جارتى التى أوصلتنى قريبًا من مبنى الفندق الفخيم الذى يحوى قاعات عديدة للسينماء بعد أن أفرطت فى استخدام أذنىَّ كسلة لمهملات حياتها التى اعترتها رغبة عارمة فى التخلص منها بالحكى..

أمام مبنى الفندق الفخيم أوقفنى موظف الأمن الأنيق وهو يبتسم ابتسامة تتنافى مع ما تحمله يده الأخرى من سلاح. عبرت الحاجز الأمنى فى مدخل الفندق وبدت لى أشكال الاستمتاع بالمكان والحركة فيه مثل شقاوة لذيذة مفتقدة، فرحت أتنقل بين السلالم الإلكترونية من طابق لآخر حتى أوقفتنى أمام شباك التذاكر. بدت موظفة شباك التذاكر أنيقة وجميلة على نحو ما. نظرت إلىَّ نظرات مدربة توحى بأسئلة عن المكان الذى أرغب فى حجزه. اقتربت من الشباك وأخبرتها أننى وحدى وعليها أن تأخذ هذا فى الاعتبار.

أعطتنى الموظفة التذكرة وهى تبتسم لى ربما فى شبه تعاطف. راحت بعده تهمس لموظف زميلها كان واقفًا إلى جوارها يبثها اهتمامه. لاحقتنى نظرات شبه التعاطف من الموظفة وزميلها حتى دخلت الكافيتريا المواجهة لقاعة السينماء وسرعان ما جاء موظف أنيق بربابطة عنق حمراء يعتذر فى أدب جم أن الوقت مبكر للغاية ولم تبدأ الكافيتريا نشاطها بعد.

كان هناك بعض الوقت قبل موعد بدء الفيلم وكان أغلب المقبلين عليه

من الشباب الصغير والفتيات الصغيرات والأطفال. حين حدقت فى "أفيشات" الفيلم اكتشفت أننى حجزت تذكرة فى فيلم آخر غير الذى أوصانى صديقى النوبى برؤيته. جريت إلى الموظفة التى ظلت تضحك حين رأتنى أمامها فأخبرتها أننى راغبة فى دخول فيلم قاعة العرض الأخرى.

كان الفيلم من أفلام الإثارة والآكشن فأخذت النقود من الموظفة وذهبت إلى الشباك الآخر. كان به شاب نحيل يشبه فى نحوله المفرط رقبة الإوزة.

أعطيته النقود وطالبته على استحياء أن ينتقى مكانًا يليق بامرأة وحيدة. نظر الشاب إلى محدقًا وانفجر بالضحك وأعطانى التذكرة. لم يشأ يتحدث قليلاً إلى زميلته السمراء النحيلة نحولاً مبالغًا فيه والتى أفرطت هى الأخرى فى الضحك.

حين دخلت الممر المؤدى إلى صالة العرض أخبرت "البلاسير" فى رقة شديدة بضرورة انتقاء مكان ينأى كثيرًا عن الناس فإذا بالرجل يضحك فاهتزت البطارية التى تزيح ظلمة طريقه إلى صالة العرض. كان "البلاسير" شابا نحيلاً هو الآخر، غير أنه كان يشبه رقبة الزرافة. جلست فى مكانى النائى تمامًا عن الصوت حيث أوحى لى المكان وأنا أشعر بدهشة بلا حدود من ضحكات الموظف السفروت الذى يشبه رقبة الإوزة وله عينان تشبهان عينى إنسان مغولى. وكذلك دهشت لضحكات الموظفة السمراء العجفاء، وجه القرد، وضحكات "البلاسير" رقبة النعامة الذى تقدمنى وأنا أتوجس من المبلغ الصغير الذى دسسته فى يده ليمنحنى مكانًا آمنًا.

كان العرض قد بدأ بإعلانات عن سجائر وعطور وسيراميك ووسائل تخسيس وموبايلات وأفلام العرض القادم فى القاعة نفسها. وفى قاعات

أخرى. ضقت ذرعًا ب "البلاسير" الذى أجلسنى بعيدًا عن الناس كثيرًا حتى إننى لم أسمع همسًا لأحد أو حتى أنفاسًا. شعرت بالرغبة فى الاقتراب من البشر ولتحرق هذه الوحدة التى أدمنتنى وأدمنتها مرغمة، وطمأنت نفسى أننى بعد انتهاء الإعلانات ومع بداية الفيلم سوف أنتقل بنفسى دون مساعدة "البلاسير" للجلوس وسط الناس وليحدث ما يحدث، فأنا الآن لست فى حاجة إلى صمت المقابر هذا، ولأربأ بنفسى من أشجار الأسى التى لا تثمر إلا صمتًا وضجرًا.

توخيت الحذر فى النظر يمينًا ويسارًا وصوبت عينى فى اتجاه الشاشة التى لم تفصح سوى عن استمرار إعلانات السجائر والمياه الغازية وأدوات التجميل وتبييض البشرة والعطور وإطالة الرموش والشعر والأظافر والرقبة والسيقان والعمر. انتهت الفقرة الإعلانية وأضيئت أنوار الصالة وتلفتت حولى وكان هول المفاجأة أكبر من أصدق ما حدث ويحدث. وإمعانًا فى التأكد أدرت رأسى إلى اليمين واليسار والخلف وأمعنت النظر بحثًا عن بشر غيرى فى الصالة ولم أجد.

فى البدء توجست من أن أكون دخلت قاعة أخرى بطريق الخطأ، غير تلك التى سيعرض بها الفيلم، فتحركت لتوى وخرجت أسأل "البلاسير" رقبة النعامة الذى كان جالسًا إلى جوار موظف شباك التذاكر "رقبة الإوزة" والموظفة السمراء العجفاء "وجه القرد" يشاركهما الضحك والثرثرة وارتجال نكات ساخرة. أكد لى الموظف أنها القاعة حقاء وأن الفيلم سيعرض بعد قليل فعدت إلى مكانى وقد شاعت موسيقى خفيفة.

كان فاصل الموسيقى ناعمًا للغاية، تحققت فيما بعد أنه فالس الدانوب

الأزرق قبل أن أصل إلى مقعدى الذى أشار إليه "رقبة النعامة". نظرت إلى الصالة التى تخلو تمامًا إلا منى، وتخيلت أنهم جميعًا تفرقوا إلى التواليت أو خرجوا لتوهم إلى الكافيتريا إلا أننى لم أجد أحدًا. تذكرت جيدًا أن ضحكات "رقبة الإوزة" و"رقبة النعامة" وغيرهما لم تكن إلا سخرية منى، وهممت للحظة بمغادرة المكان، إلا أننى حين تأملت المكان وتفاصيله مليا استشعرت قدرا من الزهو بأن الحفل هذا الصباح خاص بى وحدى.

راق لى التنقل بين مقاعد القاعة كلها وأنا أتسمع جيدًا الفاصل الموسيقى الناعم، فالس الدانوب الأزرق لشتراوس، ثم استشعرت بجسدى يرتعش مع نغمات الموسيقى وأنا أتحرك وأجوب الصالة رقصًا وزهوًا فى كل الاتجاهات مع نغمات الموسيقى.

أغمضت عينى تمامًا ورحت أراقص شخصًا وهميا لا أعرفه، كان يجذبنى فى اتجاهه بعيدًا عن ضحكات رقبة الإوزة ورقبة النعامة وغيرهما، كان يجذبنى بعيدًا عن الوحدة والملل والضجر وأنفاس الفضوليين. ظل يجذبنى بعيدًا حتى بعد أن اعتذر المسئولون عن عرض الفيلم لأنه لم يأت إلى العرض إلا فرد واحد.

شجرة اللارنج

من المؤكد أن ما أعيشه اليوم ليس السبب الوحيد فى التفكير فى ارتباط جديد، وقد صارت نباتات الصبار شهود عيان على حالة الرضا الوهمى التى أقنع نفسى والآخرين بها كلما لاح فى الأفق أى من عناصر البهجة. صرت أحمد الله كثيرًا على هذا الحد وتلك الصيغة التى تتحرك بها حياتى، غير أننى ومنذ اللحظة التى تلوح بها الأيام برجل جميل تحرضنى عيناه الصافيتان على تجاوز ذلك الحد وتلك الصيغة.

فى لحظة مثل هذه أرى نفسى امرأة أخرى.

فى البدء بدت عيناه الماثلتان دائمًا للود مثل شرك أو فخ، وبدا هو مثل قناص يرغب فى اقتناص بهجة أبدية. ومع الوقت أكد لى أن الحياة هى اثنين لا واحد. غير أن مسالك الشك ودروب التردد كثيرًا ما كانت تجرح قناعتى.

فى كل مرة أراه يصر على أن يكون لقاؤنا يوم الخميس، فقد أصابته الوحدة بـ"فوبيا يوم الخميس". صار يخشى البقاء فى البيت فى ذلك اليوم وعليه لابد أن يكون اللقاء فى ذلك اليوم. أقسم بكل ثمين وغال بأنه لا يقصد على الإطلاق ما أقصده وما تروج له الثقافة الشعبية عن هذا اليوم وأننى صرت حقا امرأة شريرة.

ابتسم على الرغم من أنه كان يحكى منذ قليل عن حالات الاكتئاب الحادة والمزمنة التى تحاصره لو لم ير أصدقاءه فى ذلك اليوم.

كنت فى كل مرة يحكى هذا أؤكد له عن قناعة تامة أن شكل الأيام وفكرة الناس عنها من فرط نسج خيالهم مع مجهود – ليس قليلا – لظروف الحياة، وفى كل مرة أقرر ألا أذهب لمقابلته يحدثنى فى التليفون بعد ساعتين

من الانتظار الموجع، فأنبرى باختلاق الحجج والأعذار.

ذات مرة نصحه أحد الأصدقاء بتغيير يـوم الخمـيس فربمـا تحـدث المعجزة ونلتقي. ففعل.. والحقيقة أن شيئًا ما غامضًا وغريبًا كان يعوق دائمًا لقاءنا، ربما كان ترددى الذى يحبط كل محاولات البهجة التـى مـا زالـت تقدمها لى الأيام على أطباق من فضة ومن ذهب فى أحيان أخرى...

ظللت أتردد للمثول أمام عينيه، وهو يحاصرنى من كل جانـب، حتـى شرفات المنزل المقابل ووجه القمر وشعاع اشمس وعصافير الحى الغرباء. ما زالت العصافير تشعر بقدر من الاغتراب فى المكان وربما الزمان، فلـم تألف بعد أسلاك الكهرباء والتليفونات أو أشجار مدينتنا السكنية الجديدة.

ربما كان لابد أن يمر وقت كاف حتى تألف العصافير وآلف أنا ويألف هو.

الأمس كان الخميس. حاصرنى صوته قبلها بيومين بتغيير المكان الذى نحدده مسرحًا للقاء الفريد، فقد كان يدرك على نحو ما أنـه شـؤم.. فمنـذ تعارفنا وهو لم يرنى سوى مرة واحدة وتكفل التليفون بكل ما بلغنـاه مـن ألفة.. وللمرة الرابعة أؤكد له أننى قادمة فقد أوحشتنى فعلا بهجة الخروج من برودة القوقعة التى أغلقتها على نفسى، وساهمت الظروف وغبـاء الـبعض وجلافة البعض الآخر بالباقى.

وجهى فى المرآة يؤكد أننى لن أذهب.. ودقات الـساعة التـى تـشير لاقتراب زحف الوقت مثل قدر توحى أيضًا بأننى لن أذهب. الغريب أنه لـم يكن لدى ثمة شىء أكثر بهجة أو جمالاً أو أهمية يشغلنى عنه. كل الأمور لا تتعدى العادى والمألوف مع قراءة الجرائد والمجلات القديمة أو طهى وجبـة

خفيفة لجارتى المريضة، وكذلك الوقت المهدر أمام شاشة التليفزيون.

ظللت لعشر سنوات أراقب الضجر وهو ينخر مثل السوس فى نفسى وأنا أريق العمر أمام عالم الحيوان وعالم البحار وعالم المرأة وأغلب صديقاتى وأقربائى يلاحظن ما صرت ألاحظه فى الأيام الأخيرة.

أوحت إلىّ إحداهن بأننى امرأة تقاعدت عن الفعل الإنسانى، وأومأت لى أخرى بأننى صرت مثل أشجار الصبار التى أكثر من زراعتها فى شرفتى وعلى بسطة السلم، وأمام العمارة، لا يحركها العطش والحر وأكثر عناصر الحياة قسوة.

ربما لكسر إيقاع الحالة لا آبه بما يقال وفى سرعة فائقة نهضت من مقعدى أمام التليفزيون، وهتكت غلاف الكسل المريح وارتديت ثوبًا جميلاً، لاحظت ثناء الجميع على لونه. أعلم أن الماكر الجميل سيركز على نتوءات الثوب وثقوب الدانتيللا التى تشف وتصف وترف بعقله إلى البعيد.

فى المرآة لاحظت أننى اليوم أكثر جمالاً مما مضى، فقد عالجت تمامًا ذلك الشحوب الذى لازمنى كثيرًا بعصير الليمون مع الزبادى، وقمت بتنعيم بشرة يدى بعد الانتهاء من العمل فى المطبخ والحمام وبقية البيت بمزيج الليمون مع الجلسرين. وجه أمي ما زال يربت على قلبى بابتسامته الطيبة وتزجرنى عيناها بألا أتأخر عن الموعد. شكانى لها أكثر من مرة.

استوقفتنى الجارة لتحدثنى ولأول مرة عن نفقات العناية بالعمارة، وفاتورة المياه التى تصاعدت بشكل مبالغ فيه فى الفترة الأخيرة.

تركتها وقابلت جارة أخرى تعيش بمفردها بالطابق العلوى، وشكت لى من خطاباتها التى تجدها مفتوحة وملقاة على الأرض، وأحيانًا منزوعة

الغلاف..

على أول الشارع كنت أرتب في رأسى كلمات الجارتين اللتين تسرعان فى الكلام، ولا يستطيع عقلى ملاحقتهما بالفهم والاستيعاب.. أكثر من تاكسى اعتذر بهزة رأس أو إشارة يد أو بالتجاهل، فقررت السير حتى أول مدخل المدينة. رفعت يدى أكثر من مرة للنظر في الساعة، وأكثر من مرة سألت المارة ربما كان هناك خلل فى ساعات الأرض وفرحت لهذه الحالة: أن قلبى الذى بدا مثل بندول الساعة الصدئة راح يتحرك على نحو ما.

أشار أحد الجالسين على مقهى عشوائى أقيم فى الخلاء العمالة التى تعمل فى إعادة تشطيب الشقق والعمارات. كان مشغولاً بمتابعة النساء اللائى يشرين الخضروات والفاكهة إلى أن تاكسيا يركن هناك أمام المقهى. حين اقتربت نهض السائق مسرعًا وكوب الشاى فى يده.

فى المقعد الخلفى جلست وأوحيت للسائق الذى استحسنت فيه حرصه على أكل العيش بأننى جد متعجلة ربما لضغط بندول الساعة الصدئة على نفسى. أشار السائق إلىّ بأن أحمل عنه كوب الشاى ليقود السيارة، ففعلت تفاديًا لمزيد من التأخير الذى قد يضيع فى البحث عن سيارة أخرى، وكالعادة سألنى الرجل أسئلة كثيرة، وكالعادة كانت إجاباتى كلها خاطئة.

حضرتك من سكان المدينة؟

هل أنت متزوجة؟

ألديك أطفال فى مدارس خارج المدينة؟

ألا ترتبين مشاوير تحتاجين معها إلى تاكسى بشكل دورى؟

إليك برقم تليفونى. وحين يوصلنى سوف يسألنى إن كنت أرغب فى

أن ينتظرنى ليعيدنى إلى المدينة؟

مع سرعة السيارة كان كوب الشاى يهتز فى يدى، وحرصت علـــى ألا يسقط شيئًا منه على الثوب الجميل الذى أفرط فى العناية به منذ زمن، وكنت قد اشتريته خصيصًا لأول بهجة قادمة ولم ألبـــسه إلا اليـــوم. كانـــت كـــل صديقاتى وجاراتى يؤكدن لى أنه موضة قديمة لكنه جميل.

منذ أيام أراد أن يضعنى أمام الأمر الواقع غير أننى أبدًا لم أرد لأى أمر أن يقع حتى حين وقف أسفل شرفتى وأتى بجيتار وراح يعزف لحن العذراء والموت لشوبان، وكان يعرف مدى عشقى لذلك اللحن. كان إلى جواره على الجانبين امرأة وثلاثة رجال. كانت المرأة وأحد الرجـــال مـــن أصـــدقائهما المشتركين، أما الرجلين الآخرين فلم أعرفهما من قبل.

عرفت بعد انتهاء اللحن أن أحدهما كان المأذون، صعدوا إلـــى الـــشقة وفتحت لهم إحدى صديقاتى، وسرعان ما عم البيت نقاش وجدل حول ماهية الأيام إن لم يكن للناس فيها بهجة وأليف. أخبرته أن الأمـــور لا يجـــوز أن تحسم بهذا الشكل، وأن لدى مشاكل ما زالت مع نفسى لابد من التفاهم حولها أولا..

كان يدهش إلى أننى ونفسى لسنا بالشىء الواحد، وكان يخشى علىَّ بأن أصبح بين صبح وعشية امرأة خرفاء تدع خيوط الحرير تفلـــت مـــن بـــين أصابعها دون أن تدرى.

زادت رجرجات السيارة فأردت أن أعطى السائق شايه، غير أنه تعلـــل بعدم قدرته على القيادة وبيده الكوب، وأن المسألة كلها دقائق وها نحن كـــدنا نقطع نصف المسافة.

فكرت أننى ربما أكون قد تأخرت عليه وتذكرت أنه ربما يشفع لى ميراثنا الشرقى مع المواعيد. وأن النساء دائمًا متأخرات ومتخلفات ويفخر بذلك الرجل. يحتفى دائمًا بالمرأة التى تتأخر على موعده والتى لا تضع له وزنًا والتى تتجاهله والتى تنفيه، وحين توجده ينفيها.

فكرت أيضًا أننى لابد أن أماطل فى مسألة الموافقة على أن الحياة يمكن أن تكون أجمل لو صرنا اثنين حقا، وأنه من الممكن أن نتساند فى الدنيا ونتكاتف عليها، حتى تثبت الرؤية، ربما صنعنا معًا حياة جميلة.

ولم لا ونحن نتشارك فى حب القراءة والسينما والقهوة بدون سكر وسعاد حسنى وأحمد زكى والبصل المسلوق والبشر الجميل الدافئ.

ولم لا ونحن نتشارك أيضًا فى كراهية الثرثرة والتفاهة والترهل والتشاؤم.

ولم لا ونحن نتشارك أيضًا فى كراهية الكآبة والتخلف والجهل والظلم..؟

فكرت أيضًا أنه ولم نعم؟ وغالبًا ما تتسرب غابات سوء الفهم لتفترش مكانها فى عقول الرجال والنساء.

زادت رجرجات السيارة وبدا واضحًا أنه ربما يسقط كوب الشاى على ثوبى فيعوقنى هذا عن اللقاء واستشعرت فى نفسى قدرة غريبة تجعلنى أستمسك جيدًا بكوب الشاى. كنت أتساءل عن ذلك الشىء الذى أقاومه تحديدًا.

وفى لحظة لم أدركها أو أعيها أو أحسها زادت سرعة السيارة فأسقطت كوب الشاى من النافذة وطالبت السائق أن يسرع فى اتجاه العودة، وحين

دخلت البيت نظرت إلى شجرة اللارنج. كم أحب هذه الشجرة لمقدرتها الهائلة على حماية نفسها ففروعها تحوى مقدرة لا نظير لها على مقاومة الفطريات.

مسحوق الود

ظلت الحياة طيبة على نحو ما حتى عرف أخي "مـــراد" الحـــب، وراح قلبه ينبض بمشاعر مثل رفيف الطير تجاه...! هكذا وصف "مراد" الفعل وهو يشير إلى قلبه المستكن فى جسده البدين. ظل "مراد" ممشوق القـــوام لوقـــت قريب، عامان تقريبًا ثم داهمته هذه التطورات الجديدة. رأينا البدانة تحتفـــى بذاتها على جسد "مراد" وهو يدعمها بشهيته المفتوحة على الـــدوام، وأمـــى تتابعه بنظرات الحسرة والمرارة.

كان "مراد" يحمل وجهًا خمريا بملامح أقل ما يقال عنها "بيبى فـــيس"، وطابع الحسن فى منتصف ذقنه يزيده وسامة. والحق يقال ليس لأنــــه أخـــى وأخي المحبب لقلبى إلا أننى أزعم والعهدة على الراوى – أقصد الروايـــة – أن "مراد" باستثناء مسألة بدانته هذه يحسب على الشباب شـــديدى الوســـامة. وهذا ليس تطبيقًا للنظرية الاجتماعية "القرد فى عين أختـــه؛ أقـــصد أمـــه، غزال".

كان "مراد" على العكس منى تمامًا يأكل ويمرح غير آبه بأى شىء حتى وصل لحالته هذه من البدانة ووصلت لهذه الدرجة من النحول. ظلـــت أمـــى تحاصرنا بنظراتها ولفتاتها. فحين كنا نقف متجاورين تسخر منا، وكذلك إذا وقف "مراد" على ناصية الشارع مع أصدقائه من النحيلين كانت توبخه بأنه مثل رقم الثمانية بين آحاد وأصفار، وسرعان ما رأينا "مراد" يهجر أصدقاءه النحيلين إلى غيرهم شديدى البدانة.

الغريب أنـــه لم يسلـــم من سخرية أمي أيضًا فراحت توبخه لوقوفـــه

الدائم مع قوم من الفيلة. حار "مراد" كثيرًا وهو رقيق المشاعر فـــي مـــسألة ضبط إيقاعه على رضا الآخرين، وكنت كثيرًا ما أحثه على أن يعيش وفـــق إيقاعه الخاص. لكن الأمر الذى ظل يثير دهشتى لفترة طويلة أنه رغم ذلـــك كان دائمًا يلتمس لأمنا أسباب الشفقة مذكرًا إياى بأنه يكفى أنها لم تتزوج بعد رحيل أبينا، وكانت وقتها ما تزال شابة صغيرة وفى رقبتهـــا ســـتة أطفـــال صغار.

عندما يخلو البيت كنت كثيرًا ما ألمح فى عينيها أنها المسئولة عن سوء حظنا من ارتباك الجينات والحياة، على الرغم من أنه أبدًا لم يكن فى العائلة من يحمل على جسده كل هذه البدانة وهى ترانى أمامها فى غاية النحول.

تحدثت أمى وفى حلقها مرارة العلقم وفى عينيها دموع، أنها عكفت على تنشئتنا وتعليمنا وهى الآن تفرح وهى ترانا نتحرك أمامها مثـــل دجاجـــات طيبة. هكذا تقول.

زوجت الجميع وحارت فى زواجى وزواج "مراد". هو لبدانته المفرطة، وأنا لنحولى المبالغ فيه، حتى صارت تعاملنا باعتبارنا عبئًا ثقيلاً تحلم كـــل ليلة بالخلاص منه.

فرحت أمى أخيرًا حين رأت "مراد" يعلن أمامها أنه يحب "ســـها" بنـــت جيراننا الجدد، ورحبت بالفكرة شريطة أن يفضى الحب سريعًا إلـــى زواج. حين رأى "مراد" "سها" لأول مرة دق قلبه برجفات غريبة. ظل يصفها لنـــا ليلة بطولها وأمى تسأله عن موعد تقديم الشبكة. كان يتحدث عنهـــا بعيـــون رومانسية، ربما كانت كفيلة بأن تفجر فى رأس أعتى المؤلفين كوميديا راقية.

كانت أمى ترغب فى استعجال زواج "مراد" بشكل غريب يدعو للقـــلق.

بعد قليل راح هو الآخر وتحت ضغوط أمه يحاصــر فتاتــه بنظراتــه ولفتاته وقصائد الشعر التى يلقيها عليها وعلينا وعلى العالم مــن الــشرفة. الغريب أن "سها" لم تبد أية بادرة إزاء كل هذا غير أنها كانت تضحك، الأمر الذى جعل صديقًا له – لا أعرف تحديدًا مدى خبراته فى هذا الجانب – يدخل فى روعه أن ضحكاتها هذه ما هى إلا استجابة طبيعية لمشاعره الفياضــة، وراح "مراد" يتلقى ضحكاتها مثل الماء العذب الذى يدل على وجــود نهــر عظيم.

ظل "مراد" مهووسًا بسها ونظراتها وضحكاتها وهى تغلق شيش الشرفة فى وجهه كلما رأته أمامها. كل هذا وهو يتخيل أن ما يحدث مجرد فصل فى كتاب خجل الأنوثة، ودلال البنات.. فصول عدة قرأها فــى عينيهــا، فظــل يتربص بروحاتها وغدواتها حتى فاجأته ذات مرة، وقالت له فــى صــراحة وقحة..

"ما فيش فى بيتكم مراية تشوف فيها نفسك؟"

ظل "مراد" مكتئبًا لفترة طويلة. لا يذهب إلى عملــه ولا يفــتح شــرفة غرفته ثم فاتحنى وهو ينظر إلى الأرض أن مع "سها" كل الحق.

لم يكن غريبًا أن أمى وتعويضًا لأحزان "مراد" أن تفرط فــى حنانهــا ورعايتها له وخاصة العناية الغذائية، لكن الغريب أنها راحت تبحث فى دفتر أحوال العائلة عن فرع من الفروع له بدانة "مراد" نفسها.

أخبرت أمى أنه لا طائل من وراء هذا وأن عليها أن تقدم لــه أنواعًــا خاصة من الدعم النفسى، ثم نصحناه بالذهاب إلى طبيب سمنة. هــو وحــده الذى سوف يرشده للطريق السليم. الغريب أنها نصحتنى أيضًا بالذهاب إلــى

طبيب لعلاج النحول الشديد الذى ربما كان السبب الوحيد فى تـأخر قطـار الزواج.

يومها عدت و"مراد" كل من عند الطبيب وشهيتنا مفتوحة للحياة. فـتح "مراد" شرفته ونظر إلى "سها" التى أغلقت شرفتها فى وجهه غير أن إرادته القوية جعلته يبتسم وهو يؤكد أمامنا على نظام غذائى صارم، فـضلاً عـن اشتراكه فى أحد مراكز التخسيس، ثم راح يقطع المسافات الطويلـة وهـو يرتدى "الترينج سوت" و"الكوتشى"، ويغنى مثل عبـد الحلـيم حـافظ "يـا مواعدنى بكرة". كان يبدو لنا وكأن بداخله وعدًا بفرح ما.

بالفعل أتى "مراد" بنتائج طيبة لكنه كان يبدو مثـل مـريض، شـاحب الوجه، منهوك القوى، زائغ العينين.

وذات يوم رأينا عامل الفراشة يعلق الزينات والكهارب على شرفة "سها" وينظر إلى شرفتنا، وكأنه يعرف تفاصيل المسألة.

وفى الليل وأنا واقفة فى الشرفة وأضواء الكهارب والزينـات تعـاكس عينى رأيت "مراد" داخلاً الشارع يرفع عينيه إلى شرفة "سها".

أقول الحق أننى كنت أحس وكأن مأتمًا فى بيتنا. أسدلت الستائر وأغلقت التليفزيون والراديو، وجلست وأمى متقابلتين وأيدينا على خـدنا نرقـب أى حركة ولو بسيطة فى غرفة "مراد". بدت المسألة يصورها "مراد" على أنهـا كارثة مروعة ألمت بحياته العاطفية، بينما رحت أبحث عن حلـول متفائلـة تجعله يرى أن ثمة ضوء خارج النفق.

ظل "مراد" منعزلا فى غرفته لفترة طويلة، رافـضًا الطعـام والكـلام والجلوس معنا بعدها رأيناه يهمل الذهاب إلى الطبيب ومركز التخسيس وعاد

لكآبته، مضافًا إليها الإفراط فى الطعام وخاصة الحلويات وهو يجزم أنها تشكل له تعويضًا كافيًا لكم المرارة الهائلة فى حلقه.

لم يمر شهر حتى رأيت "مراد" وقد وقع لأذنيه فى غرام زميلة له فى العمل، وراح يقضى الوقت فى غرفته بالساعات ليكتب لها خطابات ليفاتحها فى رغبته فى الزواج منها ثم يقطعها. هذا غير عودته إلى نظام التخسيس الصارم ومواظبته الشديدة على مراكز التخسيس وطبيب السمنة والسير لساعات مع أغنيات عبد الحليم.

ظل بيتنا مشغولاً بقصص الحب التى يدخلها "مراد" بمفعم الأمل ويخرج منها مكسور القلب والخاطر لأكثر من ثلاثة أعوام وربما أكثر. كنت أراه يصحح وهما بوهم وكذبة بأخرى ويرمم كسرًا بكسر وظلت أمى تتراوح بين الفرح لابنها والحزن عليه حتى أجزمت بأنه قد بار فى رقبتها ومال بخته تمامًا كالبنات.

فى تلك الأثناء كنت مشغولة لأذنىَّ باستكمال الدراسات العليا والبحث عن منحة للسفر إلى أوروبا أو أمريكا. كنت راغبة لإضفاء معنى ما على حياتى من دون الجلوس إلى جوار حوائط الانتظار أكفكف دموع أمى الحزينة على بخت ابنها البدين وابنتها النحيلة، ولم أستطع أن أترك "مراد" هكذا فاقتحمت مكان عمله ذات مرة وخرجنا معًا إلى مكان واسع.

يومها حدثته عن الحب الذى يتخلق بين البشر نتيجة للتعايش فى مجال عمل أو دراسة أو أية ظروف مواتية، ولا تكون نواته الشكل، بل الارتياح والاعتياد والألفة. كنت أتحدث إليه وهو يسمعنى مثلما يسمع الواجب اليومى أو نشرة الأخبار، غير أنه لم يمر وقت حتى التحق "مراد" فى معهد لدراسة

اللغة الفرنسية، ولم ينته الـ"كورس" الأول حتى رأيته يأتينى مكـان عملـى وتحت إبطه فتاة جميلة ومبتهجة لصحبته وقد وقعت في غرامه وراحا معًـا يرتبان للزواج. يومها ضحكت لـ"مراد" الذى قلب حياتنا جحيمًا وهـا هـو يوقع فتاة جميلة فى حبه ويرتب للزواج منها.

فى حفل الزفاف وقفت أتابع رقصات أصدقاء "مراد" شديدى البدانة. كانوا يرقصون بخفة ورشاقة. بدوا وكأنهم يحدثون توازنًا فى الكرة الأرضية ثم بدت نظرات أمى وهى تتحسر لتعثرى فى الزواج. فى نهاية الحفل ذهب "مراد" إلى بيت الزوجية مصحوبًا بدعوات أمى أن يثبت الله أقدامه. أخـذت أمى من يدها وأعددت لها فنجانًا من الشاى والنعناع ونحن نعيد ترتيب شقتنا.

لم يمر يوم حتى راحت أمى تحاصرنى بنظرات لها وطأتهـا علـى نفسى. أتخيل أننى رأيت هذه النظرات فى عينيها من قبل...

المرأة التى تغنى

علمت من مصدر ليس موثوقًا فيه تمامًا أن فريدة الوحيدة رفـضت أن تتسرع في الدخول في علاقة زوجية جديدة دون أن تستفيد من درسها السابق في الزواج والطلاق، فراحت دون أن تخبر أحدًا تُلملم جرحها الماضي فـي حياة جديدة وبيت جديد.

غير أن الذي أغاظني وكاد "يفقع" مرارتي ومرارات نساء العمارة أنني وفي كل صباح أرى "فريدة الوحيدة" تقف في شرفتها لتسقي الزرع وتغنـي، ثم تفتح شقتها لتسقي الزهور التي وضعتها أمام الباب وتغني، وتطعم القطط التي تجلس أمام شقتها وتغني، ثم تنزل السلالم وكأنها فراشة تغني.

وفي نزولها كل صباح تقابلها أصـوات شـجار الزوجـات والأزواج وصراخ الأطفال خارجة من شقق الأسر والعائلات، هذه تتشاجر مع حماتها وتلك مع خادمتها والثالثة مع زوجها والرابعة مع الأولاد.

كانت "فريدة" تتجاوز كل هذا وتغني. أراها تبدو لكل نساء العمارة مثل امرأة غريبة الأطوار، لا تصاحبنا ولا تحضر جلساتنا ولا تلبس مثلنا، كمـا أننا نراها لا تملك شيئًا مما تملكه أقل واحدة من نساء العمارة، مـن أثـاث فاخر ومجوهرات وخادمات ورجال وأطفال وسيارات، وهي التي تسير عدة كيلومترات كل صباح حتى تصل إلى أول محطة أتوبيس.

ورغم هذا كانت تبدو لكل رجال العمارة امرأة جميلة، وجميلـة جـدا. ربما باعتبارها المرأة الوحيدة التي تغني في العمارة فـي حـين انـسحبت أصوات كل النساء لنشاطات صوتية أخرى مثل الثرثرة في التليفون ومـسك

سيرة المرأة الغائبة عن مجلس النميمة كما نسميه مرحـا والـصراخ فـي الأزواج والحموات والأطفال والخادمات.

ما حدث بعد ذلك راكم بداخلنا أكثر من الحقد والغل وقد ضبطت كـل واحدة منا زوجها وكذلك أولادها وبناتها متلبسين بمتابعة "فريـدة الوحيـدة" وهي تغني والثناء على مظهرها وسلوكياتها وغنائها في الطالعة والنازلـة، حتى شباب العمارة رأيتهم بعيني ينتشرون في نوافذ المطابخ لينصتوا لفريدة وهي تقف صباحًا في مطبخها تعد فنجانًا من القهوة وتغني.

في البدء كانت الطرق سلمية للغاية. إلا أن فريدة سرعان ما أجهـضت كل محاولات الاختراق التي قمنا بها لاختلاق صداقة أو تعارف بيننا وبينها، كنا نرغب في إعداد ملف يحوي تفاصيل تاريخها السري والاجتماعي لنقف سريعًا على حالتها الاقتصادية والتعليمية والثقافية وسر طلاقها، وسر ثقتهـا الفائقة في نفسها. لعب كيس قمامتها الـذي تـضعه أمـام البـاب انتظـارًا لـ"الزبال"، أوصينا الخادمة فأتت به ورحنا نقرأ جيدًا عبر تفاصيل "زبالتها" أشياء كثيرة. إنها ترسم داخل شقتها وقد علمنا أنها مدرسة للرسم في إحـدى مدارس الأطفال. وأنها امرأة نباتية تمامًا لا تتعامل مـع أكـل الطيـور أو الحيوان كما لا تتعامل مع الرجال.

الغريب أيضًا أن أحدًا لم يرها يائسة أو محبطة لعدم وجـود رجـل أو أطفال في حياتها أو سيارة أو خادمة، فبدا ذلك واضحًا على اختيـار ألـوان ثيابها بينما تتفاوت قدراتنا نحن نساء العمارة على الإنفاق والاقتناء، ولـسنا بنضارتها ونصف إحساسها الفائق بالثقة والبهجة.

ومما زاد الطين بلة نهج المقارنة الذي صار صيغة للكلام والتحاور بين

الأزواج وزوجاتهم فى العمارة. فقد صارت على ألسنتهم فريدة هى الأجمل والأرقى والأهدأ والأروع، وهى المثقفة والفنانة، حتى أولادنا وبناتنا صارت فريدة على ألسنتهم هى "امرأة" فى "اللذاذة" و"الروشنة"، فقررنا سريعًا نحن نساء العمارة عقد جلسة استثنائية.

قامت سناء موظفة مركز البحوث بتقديم تحليل واضح للظاهرة، وكانت نتائج التحليل فى غير صالح "فريدة" التى صرنا نشعر مع غنائها أننا قردة أو دببة غبية، نملك المال والجمال والرجال والأطفال ولا نغنى.

وكذلك "شادية" إحدى الجارات كانت متخصصة فى تدريس السلم الموسيقى قبل أن تترك عملها. راحت تؤكد للباقيات أن صوت فريدة ليس جميلا على الإطلاق، غير أنها الحالة التى صارت تتلبسنا جميعًا بعد الزواج والإنجاب، وهذا الشعور المتخم بالأمان الذى صرنا نسترخى فى ظله. فضلاً عن كابوس الدروس الخصوصية الذى نلهث أمامه مع أولادنا. فصرنا نقود السيارات "موصلاتية" للأولاد والبنات للمدرسين والنوادى وشراء الأشياء من "المولات".

وبعد مناقشات ومهاترات رحنا نفكر فى كيفية الخلاص من فريدة الوحيدة التى جذبت بغنائها ليس الرجال والأولاد، بل تعاطف الشغالات. صرن من نصيراتها، ويتسابقن للحديث إليها وأداء الخدمات لها. بعدها أكدت إحدانا على محاولات "التطفيش" بتقطيع زرعها وتسريب قططها وإلقاء القمامة أمام شقتها، ومنا من كانت أكثر شرا فاقترحت ضرورة البحث فى تعلم الغناء من فريدة الوحيدة نفسها.

فى حين قالت ساكنة الطابق العلوى وكانت طبيبة اعتزلت الطب بعد

الزواج مباشرة فأصابها الشحوب والاكتئاب، إنه ربما كان الزواج هو الذى يوقف النساء عن الغناء، وقد حكت أنها أيام العمل فى المستشفى العام كانت تغنى وكان لها صوت جميل على نحو ما. أكدت ذلك جارة مدرسة حصلت على إجازة بدون أجر، إنها فعلا كانت تغنى بعد عودتها من المدرسة.

بعد كثير من المهاترات اقترحنا حلا لا هوادة فيه.. أن نزوج فريدة الوحيدة. نوجد لها زوجًا لتدخل معنا الدائرة التى لا مفر منها. ضحكت إحدانا ضحكة طويلة ثم قطعتها وواصلت النظر والصمت.

كان "سمير" - أحد أقربائى - أحجم عن الزواج منذ زمن حين أحبط فى تحقيق أحلامه مع الدكتوراة، وأحلام أخرى فى الحب والسياسة، فراح يفنى وقته فى العمل مع الحرص على القراءة ومشاهدة المسرح والسينما ومعارض الفن التشكيلى وحضور الحفلات الموسيقية.

وفى خبث شديد استطعت أن ألقى بالعريس فى طريق فريدة الوحيدة التى جاءت موافقتها بعد تفكير ووقت تأكد لها بأن جسرًا من الود والميول المشتركة يمكن أن يمتد بينهما.

وفى حفل بسيط رحنا جميعًا ننظر إليها وهى فى الكوشة ونتخيل ما تطرحه الأيام الأولى للزواج وقد تقطعت نباتات شرفة فريدة وبسطتها وتصاعد صوت شجارها وزوجها لتدخل شقة فريدة ضمن حزام الشقق التى تخرج منها أصوات شجار الأزواج والزوجات وصراخ الأطفال، ولتهنأ العمارة بجو رتيب يملؤه الملل والضجر، وينعم الجميع بهناء وسعادة أن لا أحد مختلف عن بقية سكان العمارة..

غير أن هذا الهناء لم يدم طويلا فقد استيقظت العمارة ذات صباح على

صوت غناء فريدة وزوجها وهما يسقيان زرع الشرفة والبسطة ويطعمان القطط الضالة، ثم يتهيئا معًا للنزول إلى العمل وكل منهما يغنى.

فى ذلك الصباح كنا جميعًا وبلا استثناء نقف خلف العيون السحرية نتبادلها الواحدة تلو الأخرى فقررنا عقد جلسة استثنائية للبحث فى مسألة الرجل الذى يغنى..

آن للزوج أن يعود

مللت أسطوانته المشروخة. تخيلت أن بمقدوره أن يبدع فى حكاياته تلك. إلا أنه أبدًا لم يستطع. لم يترك أحدًا من عائلتى أو عائلته إلا وسردها أمامه، وكنت لا آبه تمامًا بشكاياته هذه وأنصرف إلى عملى وأولادى. تعبت من صورة المتهمة التى عليها أن تعلن فى كل وقت حالة التأهب القصوى للدفاع عن النفس.

ظل يتلقفنى صباحًا ومساء بتلك الصيغ المهينة، على الرغم من أنه يعلم جيدًا أننى لا أذهب إلى أى مكان إلا عملى وبيت أمى وليس هناك من ثالث، لكن يبدو أن ذهنه لا يخلو من تفانين الكذب والتخوين.

أميل إلى تصديق شقيقى الأصغر فى تفسير حالته، أن رأس زوجى تمتلئ بهلاوس وأخيلة لا يراها إلا هو..

ما زلت أتساءل عما إذا كان متأكدًا لهذه الدرجة التى ربما تصل لليقين بأننى جد أخونه، فلماذا لا يطلقنى ويريحنى ويريح نفسه. ولولا إحساسى بوطأة الطلاق فى وجوه أولادى لطالبته به.

ذات يوم تشاجر معى وعبر التليفون فاض صوته بشكايات جديدة وقديمة. خرج وتمنيت ألا يعود، وجلست أقرأ شيئًا مثيرًا عن زواج شارلى شابلن المطلق ثلاثًا وهو فى الرابعة والخمسين من "أونا أونيل" شابة السابعة عشرة، ذلك الزواج الذى أربك كل من حط من قدره بعناصر الابتسام والدهشة..

لم يمر وقت طويل على غيابه هذه المرة حتى رأيته يدخل جثة هامدة،

يحمله أقرانه على الأكتاف وهو الذى خرج بكامل عافيته. رفضت الجثة الدخول إلى حجرة نومنا وجرت إلى غرفة الأولاد وتهامس أقرانه فيما بينهم..

لم تمر دقائق قليلة حتى امتلأ البيت بنساء كثيرات لا أدرى من أين جئن. كلهن لابسات السواد. ما إن رأيننى حتى تجاهلننى وبدأن بتقديم واجب العزاء. لم تلفظ الواحدة أكثر من كلمات العزاء ثم تحركن فى البيت كما لو أنه يخص كل واحدة على حدة.

لم يمر وقت حتى انبرت كل واحدة بتقديم شكل مغاير للمشاركة، فمنهن من راحت تبكى، ومنهن من راحت "ترقع" بالصوت "الحيانى" ومنهن من شرعت فى شنق نفسها بطرحة سوداء وراحت تهذى بكلمات "العديد" غير المفهومة.

بدوت كالمشدوهة أقف فى منتصف الصالة أسأل نفسى عن الذى حدث ويحدث، ومن هؤلاء النسوة اللائى ملأن البيت بالحزن والنحيب وشكل الموت وروحه الهامدة.

فى ثياب الحداد بدت كل واحدة متفاوتة الجمال والأناقة والمستوى الاجتماعى، ففيهن أرستقراطية الحزن راحت تمسح دموعها فى تأفف، وهى ترفع الطرحة الحريرية السوداء عن وجهها الأبيض وشعرها الأصفر وعينيها المختفيتين بنظارة سوداء، وفيهن الفقيرة المعدمة. تذكرت أننى رأيتها من قبل. كانت تعمل لدى جهاز نظافة المدينة.

ذات مرة ضبطته يقف خلف باب الشقة، ويتابع شيئًا من العين السحرية. وحين رآنى ادعى سماع دقات على الباب، ولما نظرت من العين رأيتها

تنحنى لتمسح الدرج وثيابها الداخلية الحمراء تطل من أسفل ثيابها.

لم ينتظر ليجيبنى عن سؤالى حتى ارتدى ثيابه وغادر البيت مسرعًا. لم أره مرة ينظر من العين السحرية كما أننى لم أر هذه المرأة بعد ذلك.

الآن لا تبدو من تحت ثيابها ثيابًا أخرى داخلية حمراء أو أى لون آخر. وفيهن من تغطى شعرها الكستنائى على طريقة الليدى ديانا بإيشارب وعيونها العسلية اعترتها حمرة.

رأيت فيهن ابنة الطبقة المتوسطة ذات الجيب والبلوزة الطويلة وحجاب لا يخفى شعرها تمامًا. تتنازع بشرتها بين السمرة والاصفرار، وملامح محايدة.

كانت فيهن أيضًا الريفية. تذكرت أننى رأيتها أكثر من مرة تبيع الجبنة القريش وخضار تقوم بتنظيفه على رصيف محطة المترو.

كم النساء الهائل داخل الشقة فاق الحد وأنا ما زلت واقفة وسط الصالة غير مصدقة لما حدث ويحدث، والأسئلة مثل شواكيش تدق رأسى. تذكرت ذات مرة وكان ذلك فى الأيام الأخيرة السابقة لاكتشاف حقيقة مرضه. كنت أغسل ثيابه الداخلية وراعتنى بقعة دم تصدرت مقدمتها فجريت إليه وكان جالسًا يقرأ الجريدة ويتابع بنصف عين شاشة التليفزيون...

هاج وماج وأقسم أنه فى حياته لم يقرب امرأة غيرى.

لم تكن الغيرة نفسها هى التى أكلت رأسى وروحى، بل ذلك الإحساس الفائق بالإهانة الذى انتابنى وأنا أغسل دنس نزواته.

قامت الدنيا ولم تقعد وراح يخبط رأسه فى الحائط ليقنعنى أنه برىء تمامًا وكنت أدرك حجم شغفه بالأساطير. خاصمته ونمت كل الأيام التى تلت

ذلك اليوم فى غرفة الأولاد. مع الوقت أسماها غرفة المقاطعة العائلية، فكذلك كان يفعل إذا ما غضب منى لأسباب تخصه. بعدها أكد لى الطبيب أن ذلك الدم كان منه وأن كبده على وشك أن يتهرأ تمامًا. أرجع الطبيب المسألة برمتها لكثرة التدخين وشرب أنواع رديئة من الخمر وتعاطى أنواع رخيصة من المخدرات التى كان قد أدمنها فى الأيام الأخيرة بعد أن ترك عمله مجبرًا.

سامحته وتقطع قلبى لتلك العلامات الواضحة لتدهور صحته. لكن ما الفائدة وكان قد راح فى غيبوبة صارت تداوم عليه، وهو من جانبه يداوم على رغبته فى ألا يفيق، فضلاً عن تلك الحالة التى تلبسته كثيرًا. كان يجلس فى مقدمة الشقة ويفتح الباب لآخره ويهذى بسباب ونعات للدنيا والزمن والنساء، وبدا حرصه واضحًا لأن يسمعه الجيران.

تذكرت هذه المرأة التى تلبس جلبابًا أسود وتغطى نصف شعرها بطرحة سوداء وتلطم خدها وتشرع فى شنق رقبتها.

كنت أراها تجلس فى كشك للسجائر والحلويات الرخيصة على ناصية الحى وكان زوجها العجوز المتهالك، يأتى من آن لآخر ليأخذ الإيراد.

بدا جسده المسجى على السرير فى غرفة الأولاد ضئيلاً ووجهه مثلجًا ممصوصًا. حاولت أن أبحث عن ملامحه التى اعرفها جيدًا فلم أجد. لكن النساء كن لا يزلن يفرطن فى إبداء مظاهر الحزن والبكاء فضلاً عن مجيء نساء أخريات.

لم أدرك على أى نحو ما الذى يحدث لى ولزوجى وبيتى وأولادى ومن أين أتت النساء بكل هذه الجرأة لأن يقتحمن بيتى ويذرفن الدمع على

زوجى.. أمام أولادى وفى بيتى.

تدافعن على اختلاف طبائعهن وطبقاتهن. كن يتبارين أمام الجميع فـــى إبداء الحزن والبكاء بما يعكس كارثية الحدث.

لم أكن أدرى أن خروجه هذه المرة هو الخـــروج الأخيـــر. بـــاغتتنى المفاجأة وألجمنى المشهد بكل تفصيلاته وكل واحدة تمسح رأسه ووجهه بيدها وكأنها فى حضرة مقام شيخ جليل.

بعد وقت أمر الرجال بخروج كل النساء مـــن الحجـــرة فقـــد آن أوان "الغِسل". بدون مثل حدآت أو غربان فى تدرجات الرمادى الـــداكن وقتامـــة السواد.

أمر أحد الرجال أيضًا بضرورة أن يحضر أولادى لحظة "غسل" أبـــيهم فصرخت فيهم ألا يكرهوا أولادى على رؤية أبيهم ميتًّـــا. احتـــضنتهم فـــى صدرى وحوطت على الثلاثة بذراعى. لـــم أدر إلا وبالأرســـتقراطية التـــى تذكرت أين رأيتها للمرة الأولى تربت على كتفى فى حنان بالغ. كان يعمـــل فى شركتها وكان يخبرنى أن زوجها هو الذى يدير الشركة ولم أعرف أبـــدًا أنها صارت أرملة.

كنت أدرك أننى بين لحظة وأخرى سأفيق من الحلم. أقصد الكـــابوس، وأتحرك داخل الشقة وهو معى. سأحضر له الطعام أو نتحدث عن جارتنـــا التى مات زوجها ولا ترغب فى الزواج وهو يصر أنها لابـــد أن تتـــزوج، وربما نتشاجر فيما بعد على تحديد من الذى يتزوجها.

بعد وقت وفد نساء أخريات وبدا الرجال من أصدقائه وأقاربه وزملائه يمررون الأمر من تحت عيونهم وكأنه أمر واقع.

في الشارع وخلف النعش كان أغلب المشيعين من النساء. انسحب أغلب الرجال وكذلك فعلت فقد كان لزامًا أن أعود لأدفع فاتورة التليفــون وأحمــم الأولاد وأذاكر لهم وأحضر له الغذاء وثيابًا نظيفة وفراشًا نظيفًا ناعمًا.

فارس الأحلام

بدا اللقاء وسط زحام لا مبرر له، وحين أحس، وكذلك أنا، بأن شيئًا ما راح يسرى بيننا، أوحت عيناه بإيماءة، فانصرف الحاضرون، وأحسست بنشوة التآمر اللذيذة التى تنسج من حولى. منذ زمن لم يتآمر حولى رجل بمثل هذه الفطنة وذلك الذكاء. ما زال قلبى يتقافز مثل عصفور، على الرغم من أن جسدى لم يعد يقدر.

رأيت "شهاب" يسهب فى الكلام، وهو يحدق فى عينىّ، ويتسمع لطريقة نطقى للكلمات، وحالة انبهار، نادرًا ما أراها فى عيون الرجال لأسباب خاصة بكل رجل، ثم يتبخر كل شىء حينما يدرك بحسه التآمرى أن لا فائدة ترجى من امرأة تستأذن مبكرة، وكأنها سندريللا للحاق بآخر أتوبيس. يذهب بها للمدينة النائية التى تسكنها. كانت سندريللا أكثر تحررًا، وهى تنهض من بين أصابع أميرها فى الثانية عشرة.

كان الحوار صادقًا ودافئًا وحانيًا. حكى كثيرًا عن أوجاعه، وعن تلك المرارات التى يتجرعها كل مساء، بعيدًا عن ابنه الذى تركته أمه وراحت تبحث عن عقد عمل فى بلد آخر. أوحت عيناه بأننى منحته فرصة عمره فى البكاء والنشيج حتى تهور واندفع وطلبنى للزواج، فضحكت كثيرًا، ولاحظت ذلك صديقتى التى ترافقنى الطريق إلى محطة الأتوبيس، وتجلس على مقربة منا.

منذ فترة لم أشعر قط بنشوة فرح رجل بى. على الرغم من أن ذهنى كان شاردًا فى ذلك الفيلم الأمريكى الذى رأيته منذ يومين، وكان بطله يشعر

بعبثية كل شيء حوله، وراح يسعى لتغيير شكل حياته وجوهرها ليثريها ببعض من الوهج والسعادة. ومع الوقت اكتشف خيانة زوجته - سيدة الأعمال - مع إمبراطور العقارات الذى يمثل حلمها فى الرجل والثراء، وكانت ابنته تتآمر مع صديقتها على قتل أبيها. وكانت زوجته تسعى لإمبراطور العقارات باعتباره النموذج الأمثل للرجال وبدا جاره ووالد صديق ابنته يخشى على علاقة ابنه بذلك البطل العبثى. بينما فى حقيقة الأمر هو الشاذ جنسيا.

لا أدرى لماذا شرد ذهنى هكذا فى مشاهد الفيلم، وأنا أجلس إلى رجل فى نفس حساسية ووسامة ورهافة شهاب. ربما لذلك التشابه الشديد بين ظروف بطل الفيلم وشهاب الذى هجرته امرأته بعد أن دب الملل فى حياتهما معا، وظل مبقيا عليها متخيلا أنها ستتراجع عن طلبها للطلاق حتى ألفاها تصر إصرارًا غير مفهوم عليه. بعدها تزوجت من أعز أصدقائه - إمبراطور التفاهة - الذى كان يستخدم بيته وسريره وربما أشياء أخرى.

فى البدء تعاطفت مع شهاب، ثم سرعان ما فكرت فى أن أغادره، وأنا أرى عدوى الكآبة تتسلل إلى نفس، وهو يذكر أن زوجته تقف الآن أمام القضاء لتثبت بفائض من الزهو والفخر نسب الطفل إلى أبيه الحقيقى، إمبراطور التفاهة. بكى شهاب وهو يحدثنى عن رغبته فى الانتحار، وتذكرت أننى بكيت منذ يومين، وأنا أطفئ شموع عيد ميلادى، وحين انتهى اليوم ونزعت عن التورتة شموعها، أشفقت على وجهى من التجاعيد التى خلفتها الشموع المطفأة، والمنزوعة نزعًا تعسفيا.

تذكرت أغنية عبد الحليم حافظ "عقبالك يوم ميلادك". وتذكرت أيضًا

أننى، وأنا بالإعدادية كان عبد الحليم حافظ يمثل صورة فارس أحلامى، الشاب مرهف الحس، الرومانسي، ثم جاء رشدى أباظة، وأحمد مظهر، وكلارك جيبل، ثم جاء ريتشارد بيرتون بوجهه الهادئ وملامحه الصامتة الثائرة فى آن. وأسعدنى أننى أدخل فى منافسة مع اليزابيث تيلور فى حبه. ثم كان جين كيلى، وكنت أطير بجناحى الخيال أمامه وهو يرقص ويراقصنى، ونتقافز بهجة وفرحا، بعدها كان روك هدسون هو فارس الأحلام، إلى أن تكشفت لى مسألة مرضه المروع، فنحيته جانبًا حتى مات ميتة متوقعة، وكذلك كان "سيدنى بواتييه" الذى أسميت قطى الأسود باسمه، بعدها رصدت صديقتى قططى الجميلة كيفن كوستنر وكيفن كلاين وودى آلن.

أمام وجه التورتة وضعت عمرى موضع تساؤل.. أهى الغاية التى ارتضيتها لنفسى عبر كل هذه السنوات. وبين مشاعر الرضا عن النفس والسخط عليها، رحت أجتر شيئًا يجهله الحيوان والطير والأشياء.

فى المرآة بدوت لنفسى حصيلة مركبة ومعقدة من الذكريات والميول والدوافع التى أجرها وراء ظهرى مثل زائدة جلدية، أو أحملها فوق كتفى مثل حدبة، وتثقل كل عام فى تاريخ ميلادى نفسه.

شهاب هذا لا يحمل أى ملامح من فرسان أحلامى السابقين، وربما اللاحقين فى سينما الأبيض والأسود والملونة، وعلى الرغم من ذلك أشعر أن شيئًا ما يجذبنى إليه، ربما كان العد التنازلى الذى يشهد تراجع الأحلام وفرسانها، وتراجع الزمن الجميل. اضطررت اضطرارًا أن أصدق صديقتى نجاة التى قابلتها منذ يومين بعد عشرين سنة غابت فيها كل منا عن الأخرى.

كنا نسعى، على ما أظن، فى مناكبها، بحثًا عن الوهج والسعادة، وعن معنى ما للحياة دون جدوى. عادت كل منا للأخرى بحفنة إحباطات، وفشل فى الحب والزواج، وتوابعهما.

يحدثنى شهاب وأنا أنظر إلى وجهه، وأشرد عن ثنايا كلماته فى ذلك الماضى الجميل الذى يعزينى عن عجز الحاضر وغموض المستقبل. ما زال شهاب ممرورًا من الحياة غير أنه عاد يبتسم، ويلاحقنى بطلب الزواج، وأنا أؤكد له أننى جد موافقة، ولكن عليه أن يمنحنى وقتًا لأتأكد من تاريخ صلاحية الفرح، وربما رحت أمنح نفسى الفرصة ذاتها.

بدت مرارات شهاب مثل مرارات الكثيرين. لم تدهشنى التفاصيل والوقائع التى سردها كاملة دون أدنى فن فى طريقة السرد، وكأنه نكاية فىَّ وفى ابتسامتى يرغب فى أن تصلنى المرارة نفسها.

عليك بالبعد عن رأسى يا رجل ربما كان لدى ما هو أكثر مرارة، وعلى الرغم من ذلك فأنا أنادى بسلامة الروح ليسلم الرأس والجسد. شرب شايًا وقهوة وكذلك فعلت، وكان ذهنى لا يزال شاردًا مع ذلك الفيلم الأمريكى الذى رأيته منذ أيام، وأنا أسخر من زوجة البطل العبثى الذى يفصل من وظيفته، ولا يجد إلا وظيفة بإحدى محلات الكنتاكى والهامبورجر، وتعزف زوجته الطامحة عن عناقه، وهى تخبره أن عناقهما سيفسد ثيابها والكنبة التى يغازلها عليها. استأذننى شهاب ليتحدث فى التليفون ويعود.

لأول مرة أكتشف، وأنا أتابع شهابا. إنه يشبه – على نحو ما – بطل الفيلم الأمريكى الذى ابتسم وهو ميت، ولا أحد يعرف من قاتله، هل هو جاره، أم زوجته، أم ابنته، أم كل هؤلاء معًا.

الواجب اليومى

بدا الملل والفراغ من الأسباب الطافية على السطح، لكن عمق البحيرة الراكدة بينهما، صار مفعمًا بأسباب أخرى أحدها عناصر الجفاف العاطفي...، فعلاً جفت ينابيع الحب والبهجة التي تفجرت بينهما منذ رأته أول مرة في مكتب صديقة لها، فقررا الزواج وكانت هذه زيجته الثالثة وكذلك كانت لها.

لذا فقد ظل الميثاق الواضح والمعلن بينهما دون كتابة ألا يفشل هذا الزواج، فهو فرصتهما الثالثة والأخيرة. كان لسان حاله يطرح علامة استفهام، وكانت الإجابة تنطلق من تحت لسانه في شبه خوف وذعر من التقاليد الصارمة والأعراف. سوف يطلقون عليه الرجل المزواج، وهي تخشى أن يلقبها الناس بأنها امرأة معيبة، لذا فقد قرر دخول لعبة التواطؤ هذه المرة لإنقاذ زواجهما من أي اعتداء داخلي أو خارجي..

مر الشهر الأول والثاني وكذلك مر العام الأول والثاني وظلت العلاقة بينهما مثل الكرة التي يجب ألا تسقط من يد أحدهما على الأرض ولا بد أن يتلقفها الآخر، أو مثل الحبل الذي إذا شده أحدهما لابد وحتما أن يرخيه الآخر.

وإذا سألت أحدهما عن الحياة قال لك إنها تمضي لكن ليس هناك شيء "لذيذًا" على الإطلاق. ولذا قررا أن يبتكرا أسلوبًا آخر قد يعطي للعلاقة مذاقًا ويبعث فيها شيئًا من الحيوية.

كان الحل الذى اتفقا عليه أن يصطحبا جارة لهما بلا أطفال وبلا زوج، باختصار بلا مشاكل، فكنت أنا. جارتهما الطيبة التى بمفردها دون زوْج أو أطفال مع بعض القطط.

ظللت عبر عناصر البهجة واعتماد منطق التجاوز الميزان الذى يضبط إيقاع الوقت وفعل الحياة بين "نجيب" و"علية" فاختفت شيئًا فشيئًا درجات الكآبة التى كانت تنشط كلما خلا كل منهما إلى الآخر، فتنوعت أشكال البهجة: نادى، مسرح، سينما، ورحلات مرة إلى قرية سياحية قريبة وغيرها.

ولطبيعتى الحكاءة وفى جعبتى الكثير من حكايات وقصص تكونت لدىَّ عبر الخبرة المتراكمة مع البشر والحياة. لذا فقد ظلت بينهما وردة البهجة التى تؤجل القنبلة الموقوتة بين "نجيب" و"علية"، أو شهرزاد التى تؤجل سيف مسرور السياف على خيط الحرير الممتد بين الاثنين.

صرت فعلا رفيقتهما الوحيدة التى تضبط إيقاع الكذب والصدق والصبر وربما العنف. وصار "نجيب" يحب "علية" حتى بعيوبها وكذلك هى. وقد أكدت هى أكثر من مرة أن الكمال لله وحده. كنت أحدثها عن قيمة "النواقص" فى الحياة التى تحثنا على السعى من أجل حياة أجمل وأروع. لم يكن كلامى لها مثل شعارات أرددها ولكن كنت أخشى على كل منهما من الوحدة التى لا يقدران عليها.

وذات يوم مرضت وأنا معهما فقد انخفض ضغط دمى فجأة وسرعان ما دخلت فى حالة تشبه فقدان الوعى الجزئى. وبما تبقى من وعى استطعت أن أدرك كيف ارتبك نجيب وغامت به أرض الحجرة ودخلت علية فى نوبة بكاء حادة وحزن وظلت تصرخ وتصرخ حتى ارتمت فى حضن زوجها.

لم أكن قد فارقت الحياة تمامًا وسرعان ما جاء الطبيب وأكد أن المسألة مجرد غيبوبة سكر.

كانت عيناى تلمعان ببريق سرى، هكذا أكد الطبيب ورفضت تمامًـــا الانصياع لفكرة مغادرة البيت إلى المستشفى لكن علية ونجيب ظلا يبكيـــان ويصرخان وكل منهما فى حضن الآخر ثم انصرفا. كانا يتساندان ببعضهما فى اتجاه شقتهما.

طوق نجاة

ما حدث من "أبو الروس" أيامها فاق كل خيال، وقلب المدرسة بتلميذاتها ومدرساتها رأسًا على عقب. حفز كل البنات ضدى واستعداهن علىَّ. أغلبهن كن معشوقاته فى عهود سابقة.. للآن لا أدرى من الذى سرب الخبر إليهن.

لا أدرى ما الذى جعل كل هذا يمر على خاطرى الآن. كان يبدو لى وللآخرين أنه من الطبيعى للغاية أن يتخذ مصطفى أبو الروس كل فترة حبيبة له من بنات المدرسة، يعيش حالة "روميو" العباسية الشرقية فيظل يتلظى بلهيب العشق والوله تحت شرفة "جولييت" الحى فيهيم على وجهه فى الطرقات، يحدث الناس والأشجار والأرصفة عنها، أضف على حالة "روميو" أن أبو الروس يحدث عنى مقاعد قهوة الصعايدة فى شارع المناخ ونوافذ يتامى ملجأ المواساة.

كانت أروى التونى وهى إحدى بنات المدرسة فتاة جميلة على نحو ما، خفيفة الظل. تتعالى علينا بما يملك والدها من محلات للفول والطعمية، وكانت تلقى شباكها، نظرات وإيماءات لمصطفى أبو الروس كلما راح وجاء. كان يسميها "البطة العرجاء" لقصر قامتها، وهو لا يعلم بأننى أحبها وأحب بيتهم.

رغم ثرائه صار مصطفى أبو الروس يدمن الجلوس مع رفقائه على قهوة الصعايدة ويلقى نظراته إلى أعلى حيث شرفتنا.

يومها بدا لى أيضًا أنه من الطبيعى أن بنات مدرسة الثانوية يقبلن الصيغة الدائمة التى يصر عليها بحبه من غيرهن إذا ما كانت الأخرى

ميسورة الحال، أو إحدى ساكنات فلل أو قصور العباسية الشرقية، لكنه حين أحبنى خابت كل الظنون، واختلت الموازين، فانفتح بـــاب واســـع لأحـــلام الفقيرات والبائسات.

بدا الأمر مفجعًا لمشاعرهن جميعًا. أن تكون حبيبته هذه المرة فلاحـــة آتية لتوها من خلف الجاموسة، كما سمعتهن يرددن أكثر من مرة. والحـــق أننى كنت أهنأ كثيرًا لنظرات الغل والحسد التى تطل من عيونهن.

أكدت لى إحدى زميلاتى أن كل واحدة منهن كانت تبتغى أن يفعل معها ما فعله معى، حين كتب لى خطابًا غراميا بدمه، وهن يروننى أقلهن جمـــالا ودلالا وثراء.

ورغم صغر سنى لم أكن أعبأ بالمتعارف عليه والسائد مـــن مقـــاييس الجمال. كنت أرى أن هناك كيمياء أخرى للجمال والثراء وشـــعور ســـاحر بالثقة والامتلاء تشكل ملامحه فى نفسى. وأنا أقرأ كل يوم كتابا لمحمد عبـــد الحليم عبد الله أو طه حسين لأترنح فى رومانسية فضفاضة تحـــت ظـــلال متخيلة للزيزفون. أو بؤس الأيام.

كنت أذهب إلى المدرسة حاضنة الحقيبة والعالم فى صـــدرى، ولا أراه مدعاة للزهو والفخار، وأننى على العكس تمامًا أراه دربًا من الجنون، مـــن ذلك الذى يحاصرنى نهارًا فى طريقى للمدرسة وظهرا على طريق العـــودة منها، وقد بات هناك سؤال لا أعرف إجابته.

لم أعرف على الإطلاق ماذا يدرس مصطفى أبو الروس أو ماذا يعمل. كل ما عرفته عنه أنه ابن لعائلة كبيرة تمتلك متاجر وعقارات وأنه محترف عشق بنات مدرسة العباسية الثانوية. أحب وعشق أجمل فتياتها، ولف وطاف

بعقولهن، ثم جاء دورى فى طابور المعشوقات الذى لم يراوغنى لحظة حلم الوقوف حتى فى آخره.

كنت أخشى أن يصل شيء إلى مسامع أبى الذى ومنذ جاء بنا من القرية ظل يحكم قبضته بهوس الخوف علينا من شباب "مصر" المتردى فى أفكار طيش الشباب، تلك التى راجت هذه الأيام ويجسدها أحمد رمزى وحسن يوسف وسعاد حسنى.

كانت كل بنات المدرسة يمارسن ضدى فزعهن غير المرئى مما فعله مصطفى معى، وقد راحت كل واحدة تحصى عناصر سخاء عطائه معها إلا هذه. فقد بذل المال والهدايا وعدد مرات النزهات فى سيارته الفارهة. ولكن لم يحدث أبدًا أن كتب لواحدة خطابًا غراميا بدمه.

لم تمر أيام حتى هاجت وماجت مدرسة البنات بالخبر.

الحق يقال إننى بينى وبين نفسى وفى صمت وتكتم كنت أستشعر شيئًا من الزهو والفخر لما فعله مصطفى أبو الروس معى، وأنا التى ما زلن يطلقن عليها "الفلاحة" ربما لتلك الملابس المضحكة التى يصر أبى أن أرتديها بينما نعيش فى حى تتفاخر البنات فيه بقصر الفساتين. كان مصطفى يستعين بشاب رومانسى فقير يكتب له قصائد غزل ركيكة وساذجة عرفت ذلك فيما بعد، وكنت أنتظر حتى يحل الظلام فأدخل الحمام وعلى ضوء شمعة أفتح الخطاب الغرامى الذى كتبه لى ابن أبو الروس بدمه، قصيدة العشق الدامى، كما كنت أردد فى نفسى ساخرة ومبهورة فى آن واحد.

ظللت أغير مكان إخفاء الرسالة لفترة طويلة حتى استقر أخيرًا فوق غطاء السيفون المعلق قرب السقف. حتى أختى المبهورة برومانسيتى لم

أستطع أن أطلعها عليه. الغريب أن مصطفى نفسه اختفى فيما بعد، وقد ظلت أفلام شادية وفاتن حمامة تدعم رومانسيتى بأفكار جديدة، هذا غير أن البطل يذهب دائمًا فى نهاية الفيلم طالبًا الزواج من بنت الفقراء، بعد أن تتلاشى الصعاب فيهنأ الفقراء ويفهم الأغنياء أن الفقراء جزء مهم فى الحياة.

كنت أطل من شرفة بيتنا لأرى قهوة الصعايدة تضج بروادها. يلعبون الطاولة ويشربون الشيشة ويتحدثون بصوت عال، وكان سطح ملجأ المواساة يعج بيتامى صغار تحممهم المشرفة السمراء وتتركهم يجفون على مهل. كنت أشغل نفسى بالقراءة وتأمل تفاصيل حياة عادية وبسيطة ومملة.

وذات مساء دق باب بيتنا. كانت أخت مصطفى. دهشت وفاحت فرحتى لكننى سرعان ما تكتمتها مثل سر، وبدأت بمداهمتها بافتعال الغضب والثورة عما فعله أخوها الذى استعدى على بنات المدرسة، وخاصة اللائى كان لهن قصصا غرامية معروفة معه، ربما رأوننى وقد أحرزت نصرًا غير مسبوق فى مجال من المنافسة لم أدخله منذ تفتحت مشاعرى على رفيف أجنحة الطيور وألوان الزهور وأنين المحبين وثورة المحبين والمحبات فى قصائد ناجى ونزار قبانى وكتابات غادة السمان.

كنت أجزم بينى وبين نفسى أنها لابد من أن تكون قد جاءت لتمهد لمشروع خطبتى لأخيها، أو تحمل رسالة يبثنى فيها هيامه وغرامه.

الغريب أن نجاة أبو الروس وكانت وقتها تبدو فى مثل سنى تقريبًا مهذبة، بل شديدة التهذيب ذات ملامح جادة، ولها جسم ضخم قوى، لم يأت على لسانها شىء من حكاية أخيها بل تجاهلته تماما. كل ما ذكرته أنها ترغب فى مد جسور الصداقة بينى وبينها، وأن لها ميولى نفسها تقريبًا فى

قراءة الأدب ومتابعة الأفلام العربية والرومانسية.

اختلفنا فقط على حب فاتن حمامة وسعاد حسنى. كنت أجزم لهـا بـأن سعاد حسنى هى الأقرب إلى نفسى وأن فاتن رغم أنها فنانة جميلة أيضًا إلا أنها تصر على أن تمثل الصيغة الرسمية للبنت المصرية التى يجب أن تكون عليها كل البنات، ضعيفات، ساذجات، معتلات. لكن سعاد تحمل كل بـذور الثورة والتمرد على القيم والتقاليد القديمة. تحب وتعرف وتجـرب لتخطـئ وتصيب فتكتشف العالم بنفسها وليس من خلال الآخرين.

كان مصطفى قد اختفى على نحو ما وظلت نجاة صديقة لى، تأتى بيتنا وتأكل من طعامنا حتى بعد أن تخرجنا فى الجامعة وكانـت أروى التـونى ثالثتنا. لم تكن نجاة تسر لى بما آلت إليه حياة أخيها وكـان مـصطفى أبـو الروس يواصل اختفاءه. علمت فيما بعد أنه سافر إلى أوروبا ولم يعد. عرفت من غيرها أنه صار يمتلك مطعما كبيرًا.

ظللت ومن آن لآخر أدخل الحمام وأرفع غطاء السيفون وأقـرأ علـى ضوء شمعة خطاب مصطفى الذى كتبه لى بدمـه. علـى الـرغم مـن أن مصطفى نفسه لم يكن فارس أحلامى، إلا أننى كنت أشعر أن هناك كيميـاء فى نفسى وجسمى تتغير كلما قرأت خطاب الدم هذا.

مرت أيام وشهور وسنوات أحببت غير مصطفى وخطبت له ثم قمـت بفسخ الخطبة لأسباب ربما بدت للجميع بعيدة عن المنطق.

كذلك فعلت نجاة، تقلبت بين تجارب شتى بحثا عن رجل مناسـب ولـم توفق، وكذلك أغلب بنات جيلنا فى العمـارة والعمـارات المجـاورة ربمـا أصابتهن لعنة خطاب الدم، ثم وقفت كل واحدة منا بجوار الأخرى تؤكد لها

على فضيلة النسيان.

أروى التونى هى الوحيدة التى نجت من ذلك المصير. تزوجت سريعًا من مهندس موهوب، لا أدرى فى أى شىء تتجلى موهبته، لكن أروى كثيرًا ما تردد هذه الكلمة عن زوجها...

وحين عدت إلى بيتنا القديم ذات ليلة خانقة اكتشفت أن أبى نسف حمامنا القديم وأعاد تشطيبه بالقيشانى الإيطالى الفاخر وأدوات صحية حديثة، فرحت أضحك وأمعن فى الضحك.

صدر للمؤلفة:

- نصف امرأة، مجموعة قصصية صدرت عن دار الحرية فى ١٩٨٤
- العاشقون، مجموعة قصصية صدرت عن الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩
- ارتحالات اللؤلؤ، قصص قصيرة صدرت عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦، ثم عن مكتبة الأسرة ٢٠٠٣
- ضلع أعوج، قصص قصيرة صدرت عن الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧ فى سلسلة مختارات فصول، ثم عن مكتبة الأسرة ٢٠٠٢
- أشجار قليلة عند المنحنى، رواية عن دار الهلال ٢٠٠٠
- إصدارات كثيرة للأطفال..
- سهرة تليفزيونية "نساء الصمت.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٥١١ / ٢٠٠٥



الكاتبة
نعمات البحيرى

- تخرجت فى كلية التجارة عام ١٩٧٦ جامعة عين شمس.
- هى من جيل الثمانينيات فى كتابة القصة القصيرة والرواية.
- عضو اتحاد كتاب مصر.
- عضو أتيليه الكتاب والفنانين.
- صدر لها:

مجموعات قصصية :

- نصف امرأة - العاشقون - ضلع أعوج (عن الهيئة العامة للكتاب). ارتحالات اللؤلؤ (عن هيئة قصور الثقافة).
- روايتها الأخيرة "أشجار قليلة عند المنحنى" صدرت عن دار الهلال.
- صدر لها عدد من مجموعات قصصية للأطفال: النار الطيبة، رحلة الأصدقاء الثلاثة، الفتفوتة تغزو السماء، بالونة سحر، وصية الأزهار، وغيرها...
- حصلت على منحة رولت فونداشن للفنانين فى سويسرا للانتهاء من روايتها "أشجار قليلة عند المنحنى"
- حصلت على منحة تفرغ ثلاث سنوات لكتابة ثلاث روايات وعدد من مجموعات القصص.
- كتبت الدراما التلفزيونية، وأنتجت لها شركة القاهرة للصوتيات والمرئيات السهرة التلفزيونية "نساء الصمت".
- ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والكردية.

انطلق المارد من قمقمه، ورغم كل الخرافات والأساطير التى قيلت عن الحب والحلم داخل القمقم، انطلق ليمنحنى رحابة الحرية واستنشاق أنفاسها واستحلاب مذاق طيب لها ، ورغم فرقتنا صار لكل منا حياته ، إلا أننى قررت أن أبقى له ولو مقعداً صغيراً ، وقد مشينا معاً دون اتفاق مسبق أولى خطوات التحرر من قدر النهايات المفجعة لأجمل علاقات الحب والزواج.

فى البدء كانت دهشته ، ثم جاء فرز الأيـام والشهور والأحـلام والكوابيس التى عشناها معًا ، أو فى البعد والتنائى فى كتاب أهدانى إياه ، وكتب إهداء فى مقدمة الكتاب.